

الهيئه العامة
لقصور الثقافة

مكتبة
الدراسات الشعبية
١٤
فبراير ١٩٩٧

مملكة
الأقطاب والدراويش

تأليف
عرفه عبده على

الأقطاب والدراويش

هنا دين احتفالىٌّ مُبْهج، القلوب ضارعة تحبُ الحياة ، تماما، كما تحب الله، هنا العـشق الإلهى هو الإيمان العميق وحيث لا مكان لغل أو كراهيـة أو (حَمْلِ سلاح) هنا مملكة من الاحتفالات والموسيقى والتضرعات، هنا صخبٌ وفنونٌ بقاء، عالم من الفرح الجليل، يقدم عرفه عبده على رصداً لاحتفالات الحب الإلهى من خلال قراءة فى معتقدات الصوفية وعادات احتفالهم بالأولياء، ويقدم قراءة مجموعة علماء أجانب للموالد منهم : إدوارد لين وفرنسوا جومار.



جنيه



* **موتيفة الوسط**

تكوين بارز من جلد

وخشب ونحاس

للفنان : فريد بلكاهية

* **تصميم الغلاف :**

للفنان محمد بغدادى

مكتبة الدراسات الشعبية
شهرية

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
د. فوزى فهمى
المشرف العام
خيرى شلبى
نائب رئيس التحرير
محمد كشيك
مدير التحرير
محمود خير الله

المراسلات
باسم مدير التحرير
على العنوان التالى
١٦ شارع أمين سامى
القصر العينى - القاهرة
رقم بريدى ١١٥٦١

هذا الكتاب

طقوس مملكة شعبية عريقة

عَالَم الطرق الصوفية فى مصر بالذات من أكثر التجمعات الشعبية غنى ودلالة. ومن المؤكد أن أى محاولة لاختراقه والنفاذ إلى صميمه بعين دارسة هى فى حقيقة الأمر محاولة لدراسة المجتمع المصرى وفهم مكونات الشخصية المصرية. وليس غريباً أن الكثيرين من المستشرقين والرحالة والمثقفين الأجانب قد توقفوا عند الطرق الصوفية فى مصر وتعرضوا لها بالدراسة، ليس فحسب لأنها ظاهرة بارزة من الظواهر الاجتماعية الدينية، وإنما لأنها إلى ذلك تعكس التركيبة النفسية للشخصية المصرية، والتركيبة الاجتماعية التاريخية للمجتمع المصرى. وقد كَثُرت الكتابة عن الطرق الصوفية من جانب هؤلاء وأولئك، بعضها دراسات علمية، وبعضها كتابات أدبية من وجهة نظر سياحية، وبعضها استجلاء لها كنشاط فنى تتمثل فيه ميول المجتمع المصرى وأذواقه الفنية. وذلك أن للطرق الصوفية جوانبها الفنية الكثيرة، من صنع البيارق والأعلام والسيوف والبوذ والشارات وما إلى ذلك، إلى الموسيقى والغناء

المصاحبين لحلقات الذكر.. إلخ.

وربما كانت مصر من أكثر البلاد العربية فى نشاط الطرق الصوفية. ففيها أكبر عدد من الطرق، وبعض الطرق تتفرع إلى فرق كثيرة، وكل الفرق تتعايش وتمارس نشاطها بحرية وبانتظام. ذلك لأن المجتمع المصرى مهيأ بطبيعته لنمو مثل هذه الفرق، فإذا كانت بعض البقاع العربية توصف بأنها أرض الأنبياء، ومهد الرسالات فمصر هى بلد الدين فى الأصل والأساس. الدين جزء أصيل من تركيب الشخصية المصرية، ومتبلور فى ترابها وبين ربوعها من قديم الأزل كما أنها أول بلد على كوكب الأرض نادى بالوحدانية الإلاهية وامتلأت أرضه بأفخم المعابد، وتقترن المعابد فى تاريخها بالتقدم المذهل لفن العمارة. والاحتفالات الدينية طقس أصيل فى مصر، لعلها هى التى ابتدعت هذه الاحتفالات. ويقول الدكتور **سيد عويس** فى إحدى دراساته العديدة إن صورة الاحتفالات بمولد الحسين أو البدوى أو الدسوقى أو أى مولد من الموالد الشائعة فى مصر ليست فى حقيقة أمرها سوى انعكاس لصورة قديمة من الاحتفالات الدينية القديمة.

ومن أسف أن الدراسات العلمية التى تعرضت للطرق الصوفية فى مصر قليلة، بل قليلة جداً. فباستثناء الدراسة الفذة عن الأدب والأخلاق فى التصوف، التى كتبها الدكتور **زكى مبارك**، والدراسة التى حصل بها الدكتور **توفيق الطويل** على

إجازة الدكتوراه عن الطرق الصوفية تطبيقاً على الإمام الشعرانى، لا نكاد نجد دراسة يعتد بها فى مصر، وذلك فى حدود ما وصل إليه علمى. هناك بالطبع كتابات كثيرة فى هذا الصدد، لكنها فى معظمها بعيدة عن المنهج العلمى، بعيدة عن النظرة الدقيقة الفاحصة.

ومن هنا يحق لنا أن نحتفى بهذه الدراسة عن مملكة الأقطاب والدراويش لكاتبها الأستاذ **عرفه عبده على**. وهى دراسة اجتماعية تاريخية، بذل فيها الكاتب جهداً كبيراً يستحق التحية والتقدير. وقد سبق أن قرأت للكاتب مقالات كثيرة فى التاريخ، وبخاصة التاريخ المملوكى إن لم تخنى الذاكرة، ولكن هذه أول مرة أقرأ له دراسة كبيرة فى موضوع كبير شامل. وأشهد أننى قد استمتعت بها جداً، يكفى أننى قرأتها فى نصف ليلة، فما أن تلقيتها من الصديق **محمود خير الله** - مدير تحرير هذه السلسلة - حتى شرعت أتصفحها لتحديد موقفى منها إن كنت سأقرأها للسلسلة أو للمزاج الشخصى أو لا أقرأها أصلا. ولكن نظراً لاهتمامى بالموضوع رأيتنى مدفوعا لقراءة الفهرس، ثم إذا بى أجدنى قد التهمتها التهاما، ودون أدنى تردد قررت نشرها ضمن سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية.

غير أن سؤالا قد ثار فى ذهنى: هل حقا تنتمى هذه الدراسة لمثل هذه السلسلة؟ ثم وجدت إجابة ميسورة: لم لا؟ أليست

الطرق الصوفية نشاطاً شعبيا تُمارَس فيه الفنون الشعبية؟. ثم لماذا لا نوسع نطاق هذه المكتبة لكى تتسع رقعة الدراسات الشعبية فتمثل ألوانا كثيرة من الدراسات. وسواء كانت هذه الإجابة مُقْنِعة للبعض أو كانت مجرد مبرر شخصى لنشر هذه الدراسة فإننى مُقْتَنع بأحقيتها فى النشر من ناحية، وجدارتها بالانتماء لهذه المكتبة من ناحية أخرى.

عبر هذه الدراسة البديعة حقا سيتعرف قارئ السلسلة على كثير من المسائل البحثية التى لا شك يهمه معرفتها، حول جذور الطرق الصوفية، وتراكيبها، وطبقاتها، ومراتبها، ونُظُم العلاقات فيها، وفنونها، ولوائح العمل الخاصة بها. سوف يتعرف على جوانب مهمة جدا فى تركيبة المجتمع المصرى. وسيتعرف كذلك على وجهات نظر المستشرقين والمثقفين الأجانب الذين كتبوا عن الطرق الصوفية فى مصر.

هى دراسة نعتز بها، ونود أن يشاركنا قراء هذه السلسلة الاستمتاع بقراءتها. ونحن واثقون أننا نقدم لهم شيئا ثميناً.

خيرى شلبى

تقـــديـــم

الأقطاب والأولياء، فى المجتمع المصرى يعكسون طبقية الواقع الذى ينتمون إليه، وهم جميعا يمثلون لمريديهم نوعاً من الخلاص، أو الأمل فى الخلاص، حين تواجههم الحياة بهمومها.. والوعى الغريزى يحول التاريخ إلى أسطورة، ومن «الكرامة» إلى جزء من النسيج الدينى، والموتى إلى مؤثرين وفاعلين في الحياة، فالشعب يصنع تاريخه وأساطيره وموروثه الفكرى ومعتقداته الخاصة فى كل لحظة!

والتصورات المستمدة من واقع الحياة العقائدية الصوفية، تقرر بأن هؤلاء الأقطاب والأولياء هم الأشخاص الذين إصطفاهم الله وخصهم بقدرات خاصة، فيجرى على أيديهم أفعالاً إعجازية تُعرف بالكرامات، والكرامة هى الإشارة أو الرمز الذى يشير إلى تلك القدرة التى يستند إليها الاعتقاد فى الأولياء.

ويحتل الأقطاب والأولياء – موقعاً فريداً – فى التزاوج بين الإيمان الدينى والمعتقدات الموروثة، والإعتقاد الشعبى، ترسخت فيه فكرة أن هؤلاء الأولياء هم الواسطة بين الإنسان وخالقه، ولا أتجاوز الحقيقة، إذا قلت بأن المعتقد الشعبى

يعترف لهؤلاء الأولياء بسلطان لا حدود له، ويضفى عليهم من الصفات المعجزة الخارقة للطبيعة، ما لا يختلف كثيراً عما نسبه الفراعنة والإغريق لآلهتهم، والمسافة الفاصلة بين الإنسان والذات الإلهية، يمكن اجتيازها بسلوك مقامات الطريق.. حتى تكشف الحجب!.. وينجلى ما هو مسطور فى اللوح المحفوظ!

واللجوء إلى الولى، يصحبه دائما الرغبة فى تحقيق أمنية أو رجاء، أما الولى الذى لا يملك الوساطة أو «البركة» و«فورية الحدث» فلا حديث عن قداسته أو كراماته!.. فالولى المبارك، ليس مجرد وسيط متواضع يلتمس رجاء من الله. وإنما يجب أن تتبلور فعالية شفاعته وتزامن البَرَكة الموحاة إليه.. باعتباره أميراً فى «الديوان السماوى»!.. وطبقاً للمفهوم الشعبى، فإن السيدة زينب - رضى الله عنها - هى التى ترأس ديوان الأقطاب والأولياء!

والمعايير الرئيسية للولاية هى المعجزات والكرامات، التى تحدث فى حياة الولى وبعد وفاته، وظهوره فى الأحلام والرؤى.. والأقطاب والأولياء فى حياتهم، كانوا لا يتصرفون أو ينتقلون من مكان لآخر إلا بأمر فى «رؤيا منامية».. تمحو الزمان والمكان.. فكم من إسراءات إلى الفردوس الأعلى، ومعارج إلى «الحضرة الإلهية».. ومشاهدة ما يقدر وراء الغيب. والاطلاع على مشاهد الجنة والنار.. ومخاطبة الأنبياء وسيدنا الخضر!

وتؤكد سير الأولياء على الصفات الإيجابية فى شخصية القطب أو الولى، ولكنها - فى مجملها- تظل ثانوية الأهمية بجانب الكرامات، وبركة الولى يمكن أن تنتقل إلى سلالته وأتباعه، وضريح الولى يشع بالبركة، وزيارة خاطفة إلى هذا الضريح، فى أيام معينة من الأسبوع، مع بعض الطقوس، يحظى المحب والمحسوب بالبركة والمدد!.. وإذا استعصى حل أى مشكلة، فالنذر مستحب لأحد الأولياء ولو بشمعة واحدة!

كذلك يسود الاعتقاد بأن أضرحة الأقطاب، تحظى بزيارات النبى - صلى الله عليه وسلم - مما يسهم فى فعالية الشفاعة. فتفيض البركات، فالولى الذى حظى بالاصطفاء الإلهى.. قد حظى أيضاً برضاء رسوله، إذن فهو جدير بالكرامات والتوجه إليه بطلب الشفاعة!

وقد شاع فى مصر، نوع من الولاية، بأن يزعم المشيخة أو الولاية، واحد من عامة الناس، وأنه تلقى «العهد» علَى السيد أحمد البدوى أو القطب الرفاعى، وقد ادعى أحد شيوخ الطريقة البرهامية الدسوقية - فى أولى جلساتى معه - بأنه «أخذ العهد على سيدى إبراهيم الدسوقى فى المنام»!

ويعيش هذا الشيخ - وغيره - ومريدوه، على بركة هذه الذكرى التى خلفها لهم القطب الكبير، الذى يفاخرون بأنهم أخذوا الطريق عليه، ويستمدون منه «السر» ويستلهمون «الولاية»

وفى واقع الأمر، وبإيجاز شديد، فإن ظاهرة الاعتقاد فى الأولياء، تكتسب عمقاً أكبر بكثير من الظاهر المباشر، فالأطفال والأولياء وسلاطين المدن والقرى، يجسدون أحلام وآمال واحتياجات الإنسان المصرى عبر مختلف العصور، ذلك الإنسان الذى يتمسك بموروثه الشعبى بوعى غريزى، يصل به إلى جوهره المكنون، دون عناء أو تنظير فلسفى!.. وتتداخل الأفكار والمعتقدات، فيتشكل «الدين الشعبى» الممتزج بموروثات تضرب بجذورها فى أعماق تاريخنا، تعكس أحلاماً ورؤى وشطحات لا يضيق عنها الخيال!

وستظل مصر دوماً، الحافظة للمعتقدات الموروثة، فلا حَصْر ولا نهاية للموالد ومواسمها، وأضرحة الأولياء التى تنتشر فى مدن مصر ونحو ستة آلاف قرية، هى مراكز وساحات لإقامة الموالد، ويمكننا القول، أنه من الصعب أن نجد يوماً - على مدار السنة - ليس فيه احتفال بمولد ولى فى مكان ما فى مصر..

والاحتفالات بالموالد، والمناسبات الدينية، من خلال طقوس شعبية مصرية شديدة الخصوصية، أصبحت من وجدان الشعب المَصرى - حتى يومنا هذا - وكم احتفظت ذاكرة التاريخ بتفاصيل مواكب الاحتفالات الرسمية والشعبية الخاصة بمولد النبى، وبذكرى موالد آل البيت وأولياء الله الصالحين، كتقليد

مصرى خالص!

وأتذكر تلك الصورة التى رسمها بقلمه أديبنا الراحل «يحيى حقى».. وهو يحدثنا عن «القاهرة الأليفة» أم المآذن والقباب ومساجد آية فى الجمال.. مزارات أهل البيت، التى لا ينقطع الطواف حولها والتمسح بأعتابها.. هنا أعياد مولد النبى ورؤية هلال رمضان وجبر الخليج وطلعة المَحْمَل وعودته.. ومواكب الطرق الصوفية ببنادیرها ودفوفها وصاجاتها ووراءهم أبو الغيط، ومواكب الطوائف فى جو من المرح.. الأراجوز وخيال الظل والسفيرة عزيزة.. الحواه والبهلوانات.. وبائع متجول، مطرب عبقرى، والنداءات موروث من جدود الجدود، ما هو بتاجر، بل شاعر يغازل بضاعته»!

والموالد - بصفة عامة - تقدم شكلاً جماعياً احتفالياً، له مظاهره المميزة المتوارثة، مضافاً إليها مواصفات الاحتفالات بالأعياد.. ويوم السوق.. فى عالم يحتشد بألوان البيارق والرايات والأضواء والأساطير والأسرار والدراويش والمجاذيب والأقطاب والسلاطين وحلقات الذكر ومجالس الانشاد وصخب الزحام.. وموروث شعبى هائل!

عرفه عبده على

الصوفية

إن حب «الله – المطلق» هو أمر توارثته الأديان.. والشرق -بوجه خاص – كانت له ذخيرته التاريخية مع مدارس الزهد والتفكر والروحانية قبل فجر الإسلام.

والصوفية – فى المبدأ – حركة أصيلة وهامة تطورت داخل الفكر الإسلامي، فحين سارت الحياة بالإسلام والمسلمين، وفتحت عليهم الدنيا،، تفرقت القلوب وفَتُرَت العزائم، وتسارع الناس إلى متاع الحياة الدنيا وعرضها، خرج التصوف من الصدور ليجاهد النزعات الجديدة ويكبح من جماحها.. وظهر العباد الذين انقطعوا إلى الله وحده، وعطروا الأجواء بأذكارهم وتسبيحاتهم وتلاواتهم.. وبإشراقات علمهم اللدنى، يرون الله فى كل شىء، ويحبونه فى كل شىء، ويفنون ذواتهم فى ذاته وإرادتهم فى إرادته.

ويذهب البعض إلى اعتبار الفكر الصوفى أو الصوفية «المظهر الباطنى» للإسلام، بالرغم من أنه لا رهبانية فى

الإسلام أو أتجاه لفكر باطني.. هناك أيضاً، إتجاهات لا ترى أدنى صلة تربط التصوف بالإسلام، بإعتبار أن الإسلام منهج إلهي متكامل للحياة، أما التصوف فهو إفراز بشرى أحاطت به مؤثرات متباينة.

ويشير بعض العلماء إلى أن الباطنية هى «فعل أكثر منها نظرية».. ومهما كان لدينا من «نظريات» أو «شروح نظرية» فإن ذلك لا يؤدى بالضرورة إلى «خبرة باطنية»!.. فالذى يتخذ من الرسول قدوة: هو من يتبع أفعاله ويلتزم تعاليمه وليس «ذلك الذى يملأ الأوراق بالحبر»!.. كما قال الشاعر الفارسى «چامى».. الذى يضيف: «إن القراءة عن الخمر لا تفضى إلى السُكر»!

والرغبة فى التقرب إلى الله، هى مُحصّلة اجتهاد وإخلاص العبد نفسه، وهى القوة المحرٌكة للمتصوفة أو الدراويش.. والحب يأتى قبل «الشريعة» وتقدم الروح على الكلمة، وفى فكر الصوفيه. أن النصوص والواجبات تعرف بـ «علم الظاهر»..

والتفسيرات والمعانى الخفية تعرف «علم الباطن».. و«الحقيقة» هى هدف العلوم التى اصطُلح عليها بلفظة «المعرفة» التى يتحصل عليها بالتأمل والتدبر والنورانية..

و «روح المعرفة» و«التوحيد» كمعان محددة للتواصل، غير

قادرة على أن يرمز لها بشكل وافٍ وملائم، ومن الخطأ الاعتقاد أنها أشياء يمكن نيلها أو الاستحواذ عليها، فهناك عموض وأسرار تفوق الوصف، إذ يقول «الحلاج» فى كتابه: بستان المعرفة «الحق حق، والخلق خلق، وليس هناك ما يُخشى منه»!

وبالرغم من ذلك، فقد أخرجت نظريات عديدة لعلم الباطن، وضعها الرواد القدامى، لكن ما يحدث بالفعل، أن كثيراً من شيوخ الطرق، والمفترض أنهم القائمين على تطبيق هذا العلم، لا يأخذون إلا بأقل القليل من هذه النظريات!

والمذهب الباطنى - فى مستواه الشعبى - هو الأقرب إلى المفاهيم الدينية فى مصر الفرعونية، حيث يشير «بلكير» فى كتابه «المهرجانات الدينية» إلى هذا المعنى، فيقول:

«خلافاً للفكر اللاهوتى التأملى، الذى استنبطته وطورته الديانات الكبرى التوحيدية، فإن الديانة المصرية كانت أمراً من أمور الحكمة، التى مكنت الإنسان من أن يفهم النظام الإلهى فى الحياة، كى ينسجم معها من أجل تنمية خلاص الفرد والمجتمع، فلم يكن الكهنة يفكرون بشكل منطقى، بل كانوا سدنة الدين والاعتقادات التى بلغت حداً هائلاً من التعقيد، ولم يتم صياغتها بشكل أكثر ترابطاً ومنطقية إلا فى عصر متأخر بواسطة الإغريق..

وكانت المهرجانات هى ذروة الطقوس الدينية، فلم يعلن – الضمير الدينى المصرى القديم – عن نفسه، بتراكم ثروة كبيرة من الأفكار، مثلما حدث فى بلاد النهرين، بل أعلن عن نفسه عن طريق استمالة الفعل العقائدى، الذى نما من مفهوم دينى قوى، فالأساطير نفسها لم تكن لها جوهر قوى، ولكنها استلهمت من الشعائر والمعتقدات، وخلافاً لفكر الأديان السماوية، لم ير المصريون القدماء – هوة – بين الإله والإنسان، بل اعتبروهما متوحدين، رغم وضوح الفارق، خاصة بعد الموت، إذ تبرز علاقة معينة نتجت عن اعتقاد راسخ بأن الميت يحصل على شىء من القوة: التى مكنت الآلهة من أن تنتصر على الموت، وهو ما يشكل مطلباً أساسياً فى عقيدة الموتى، لذا يمكننا القول أو الادعاء – البعيد عن البساطة! – بأن علم الباطن الشعبى المعاصر، والاعتقاد فى الأولياء والقديسين: هما إستمرار مباشر لعقائد مصر القديمة!»

أيضاً، يمكننا أن نلمس تأثيرات معينة من الفكر الفلسفى الهندى كالبراهمية، ومن تعاليم المسيحية والبوذية، فى الحركة الباطنية فى التاريخ الإسلامى.

ويذهب بعض العلماء، إلى أن أئمة الصوفية قد زاولوا نشاطهم على هامش مجتمعاتهم، دون اهتمام بالناس والأحداث،

وتركز جُل إهتمامهم فقط على التفكير في الله، وظل الزهد والتقشف عنصراً أساسياً من عناصر التصوف، بالنظر إلى أن الدنيا ما هي إلا محطة مؤقتة على الطريق.. فكان «الحسن البصرى» الذى توفى عام ٧٢٨م مثالاً على ذلك النوع من التصوف، ولنتأمل أحد أقواله الشهيرة:

«كن مع الدنيا كأنك لم تكن بها مطلقاً، وكن مع الآخرة، كأنك لن تدعها أبداً».. وقد تختلف فكرة «الطهر» و«العشق الإلهى» من خلال «رابعة العدوية» التى كانت تعلم مريديها «حب الله من أجل ذاته» فقط، لا خوفاً من ناره ولا طمعاً فى جنته.

وقد شعر «أبو اليزيد البسطامى» المتوفى عام ٨٧٤م، أنه شديد القرب من الله، إلى درجة النشوة والجذل، فكان يهتف بقوة قائلاً: «سبحانى. ما أعظم شانى»!، تماما مثلما صرخ الحلاج قائلاً: «أنا الحق».. ومن ثم نفذ فيه حكم الإعدام بتهمة الهرطقة والزندقة!

وأسهم «الترمذى» بفكرة «مراتب الأولياء» التى يترأسها «القطب» أو «الغوث».. وكان «الجنيد» يقارن بأغلب متصوفة عصره (القرن العاشر الميلادى) كمفكر متزن، وتنسب إليه معظم منظومة الطقوس الأولية للطرق الصوفية الحالية، مؤكداً على «التطهر الدائم» و«المجاهدة العقلية».. ويقول:

« إننا لا نأخذ الصوفية من الحديث والكلام، بل من معاناة الجوع والتخلى عن الدنيا، والانقطاع عن الأشياء التى اعتدنا عليها وأحببناها».. كما أكد على حالة «الصحو» فى مقابل «السكر» التى مارسها أبو يزيد البسطامى.

أما الشيخ الأكبر «إبن عربى».. توفى عام ١٢٤٠م. والذى دون كل المأثورات النظرية لعلم التصوف فى مجلدات ضخمة، فيرجع إليه الفضل فى ابتكار فكرة «وحدة الوجود».. والتى يذهب فيها حداً من الشطط؛ زاعماً أن كل شىء هو الله، معتقداً أن «جوهر الإله» عبارة عن: «محيط أخضر لا يحده شىء، تنبثق منه أشكال سرعان ما تتلاشى كالموج، ثم تسقط وتختفى فى أعماق سحيقة»!. ولُب منظومة ابن عربى هو: تبجيل وتوقير النبى - صلى الله عليه وسلم - بوصفه إنساناً كاملاً، والوسيط الذى عُرف من خلاله الإله، معلناً عن صفاته، وقد استلهم ابن عربى عناصر هذه الأفكار من مذهب «التفكير الافلاطونى الحديث» وهو مذهب متطور عن الافلاطونية، يتصور أصحابه: العالم فيضاً من الذات الإلهية، يستطيع الإنسان أن يتحد معها من خلال الانجذاب الصوفى!

كان كل ذلك معداً لكى ترثه الطرق الصوفية، عند بداية نشأتها فى القرن الثانى عشر الميلادى، تلك النشأة التي مازال

يحيطها الغموض!.. فى وقت كانت جماعات الصوفية فى «الرباطات» و«الخانقاوات» تحتوى أفراداً زاهدين، كل يسلك طريقه بذاته، وقد تمحور تطور الطرق - بصفة عامة - حول شخصية رجل واحد، يبث تلاميذه وأتباعه تعاليمه واسلوبه، هذه التعاليم والتوجيهات تظل مرتبطة باسمه عقب وفاته، يلقنها شيوخ إعتبروا أنفسهم ورثته من الناحية الروحية، وأصبحت التجربة الصوفية حبيسة هذا الإطار.

ومن أعلام الفكر الصوفى، الذين كان لهم قدم صدق فى الزهد وإحياء الروح وتزكيتها وتحصيل المعارف اللدُنّة: إبراهيم بن أدهم، داود الطائى، الفضيل بن عياض، شقيق البلخى، بشر الحافى، معروف الكرخى، سرى السقطى، أبو سليمان الدارانى، سفيان الثورى، ذو النون المصرى، رابعة العدوية..

الطرق الصوفية فى مصر:

مازال شعب مصر يضم ملايين المناصرين للصوفية، الذين يعلنون عن أنفسهم بانتظام وفى جماعات ضخمة فى مواسم موالد آل البيت والأولياء.

والطرق الصوفية الرئيسية التى نشأت بمصر، ولا تزال نشطة بها، مثل: الأحمدية، البرهامية الدسوقية، الشاذلية.. أو

التى نشأت بالعراق مثل الرفاعية والقادرية، يلاحظ أن مُؤسسى هذه الطرق قد ارتحلوا أصلا من بلاد المغرب والأندلس بصفة خاصة، أما الطريقة «الخلوتية» التى حظيت بانتشار هائل، واختفلت فى كثير من الجوانب عن الطرق الأخرى، فقد نشأت فى تركيا، شأنها شأن «المولوية» والتى هى و«البكتاشية» قد انتهتا بالفعل فى مصر.

وعلى المستوى الشعبى، فإن الطريقة الأكثر عدداً ونشاطاً هى الطريقة «الرفاعية» التى عاش مؤسسها القطب «أحمدالرفاعى» ١١١٠م - ١١٨٢م فى أهوار مدينة البصرة بالعراق، وقد وجدت الطريقة سبيلها إلى مصر، من خلال بعض أفراد أسرته، وبعض أنصارها، وقد اعتمدت شهرة الرفاعى على شخصيته الفذة، فاستطاع أن يجمع إليه عدداً من الأتباع، إبان عُزلته فى قرية «أم عبيده».. ونسبه الشريف يمتد حتى الإمامين الحسن والحسين، من خلال والديه.. وكان من أسباب شهرة هذه الطريقة، ما يقوم بعض من أفرادها بأعمال غريبة مثيرة للدهشة، بينما يذهب أرباب الطريق بأن منعجزات الرفاعى كانت شخصية وخاصة، لم تنتقل إلى أتباعه وخلفائه!.. ويتسم الرفاعية بانتظامهم فى جماعات، تتمتع بقدر من الإستقلالية، تتيح لهم ظهوراً جليا فى الموالد.

أما شيخ العرب السيد أحمد البدوى، فقد ولد بمدينة «فاس» بالمغرب عام ١١٩٩م، ورحل إلى الجزيرة صغيراً، إلى أن أصبح ماهراً بالفروسية، ثم دخل إلى أهوار البصره، حيث تتلمذ على الرفاعى، إلى أن رحل إلى مصر عام ١٢٣٤م، واستقر بمدينة طنطا، ومارس تدريباً مكثفاً على الزهد، وكانت له كرامات اجتذبت إليه أعداداً هائلة من المريدين والأتباع، وتوفى عام ١٢٧٨م.

وقد انقسمت «الأحمدية» إلى عشرات الطرق، إلا أنها احتفظت بسمات مشتركة، أبرزها إتخاذ العمائم والشارات ذات اللون الأحمر.

أما «قطب الزمان» أبى الحجاج الأقصرى، الذى قال عنه أبو جعفر الإدفوى فى «الطالع السعيد»: « .. تخرج عليه، وخرج من بين يديه سادات وأكابر، نطقت بمناقبهم ألسنة الأقلام وأفواه المحابر، من له فضل بارع، وباع فى الكرامات واسع».. فقد أبدى اهتماماً ملحوظاً بالمبتدئين (البدايات) فى الطريق، إيمانا منه أن المراحل الأولى فى التربية الدينية، هى أهمها وأقساها، وروادها هم أكثر الناس إحتياجاً للرعاية، وهذه الطبقة هى التى تعارف عليها الصوفية باسم: المريدين، فيقول رضى الله عنه:

« المريد الصادق لا يخوض فى الذات تعظيماً لجانب الله عز

وجل».. «المريد الصادق لا يرجع عن الطريق ولو قاسى كل الأهوال».. وكل مريد لا يجد نفسه صادقاً فى طلب الطريق، وجب عليه الخروج منه..

ويحدد القطب أبى الحجاج، علاقة المريد بإخوانه: «كل مريد عنده حسد لإخوانه، لا يرجى له إرتقاء أبداً»!.. كما يحدد علاقة المريد بشيوخه، فيقول: «من شرط المريد أن يصحب شيخه بلا نفس ولا ملك ولا إختيار، بل يرى نفسه ملكاً لشيخه يتصرف فيه كما يشاء، ومن طلب الوصول إلى مقامات الرجال بغير محبة شيخ ومخالفة نفس، فقد أخطأ الطريق، ولا ينال المريد الصادق - درجة الرجال - حتى يبذل الروح ويفنى الإرادة تحت مراد شيخه»!.. و«من رأيتموه يطلب الطريق فدلوه علينا، فإن كان صادقاً فعلينا وصوله، وإن كان كاذبا طردناه، لئلا يفسد المريدين، فإنه لا يصل إلى المحبوب من بغيره محبوب»!

وقد شهدت مصر، سنوات التكوين الأول للطريقة الشاذلية، وكان أبو الحسن الشاذلى - الذى خلف أبى الحجاج فى القطبانيه - ملتزماً التقاليد الصوفية لأبى مدين التلمسانى، وجوهرها «خوف الله فى السر والعلن، والتعلق بالكتاب والسنة فى القول والعمل»..وفى مرحلة تالية، تلقى الشاذلى تعاليم الرفاعية، وكان قد زار مقرها بالأهوار عام ١٢٢٠م، ثم استقر

حيناً بالاسكندرية، وتوفى عام ١٢٥٨م وهو فى طريقه إلى مكة بوادى «حميثره».. وقد تبلورت تعاليمه على يد تلميذه «أبى العباس المرسى».. ثم طورها «إبن عطاء الله السكندرى» فى مأثورات وتعبيرات لطيفة، عكست جوهر الأفكار الشاذلية، فى كتابه الشهير «الحكم».

وبصفة عامة، فإن الحركة الصوفية فى مصر، اتسمت بالاعتدال، وكانت بمنأى عن الغلو واعتناق الفلسفات الملحدة.. ويشير د. «أبو الوفا التفتازانى» إلى هذا المعنى فيقول: «لقد لاحظنا بعد استقراء طويل لأقول ومذاهب الصوفية فى مصر، من القرن الثالث إلى السابع الهجرى، سواء منهم من كان مصرياً أم وافداً إلى مصر، أنهم كانوا معتدلين فى تصوفهم، فلم يكن واحد منهم قائلاً بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد، كما كان تصوفهم بمنأى عن العناصر والأفكار البعيدة عن روح الإسلام»..

ويضيف د. التفتازانى، وكان - رحمه الله - واحداً من أعلام التصوف الحديث فى مصر: «إن صوفية طرق من المصريين، يجمعهم طابع خاص هو العناية بالجانب العملى الخلقى من التصوف، أكثر من العناية بالخوض فى المسائل النظرية الصوفية»..

بينما يؤكد د. توفيق الطويل على أن: آفة التصوف هى السلبية والعزلة، وأنه مع نهاية القرن التاسع الهجرى، انساق التصوف تحت تأثير الظروف السياسية والإجتماعية والإقتصادية إلى التدهور والإضمحلال، ودخله العوام، واعتنقه الوصوليون والأدعياء.. وأنه «أصبح مطية لأصحاب الأهواء من المفسدين فى الأرض، وأشد صور هذا الفساد، التلمذة على الجهال، بحجة أنهم علماء فى الطريق، ومما يثير الأسى أن بعض متصوفة عصرنا يفخر بشيخه الأمى، ويهوى على يده تقبيلاً، ولا أدرى كيف يُسْتساغ ذلك فى رحاب الإسلام، الذى يعد طلب العلم فريضة والسعى إليه جهاد، وأن الكلمات الأولى المنزلة من الكتاب الحق، كانت أمراً بالقراءة ودعوة للعلم»!

ومع التسليم بوجود شيوخ طريق أميون، إلا أن كثيراً من الصوفية يحظون بمعرفة عميقة عن الشريعة الإسلامية، وكان كثير من العلماء وشيوخ الأزهر ينتسبون إلى طرق صوفية، منهم على سبيل المثال: الإمام الجعفرى والإمام عبد الحليم محمود.. شيخ الجامع الأزهر، وكتب كثيراً عن أعلام التصوف، وكان متصوفاً فكراً وسلوكاً.. وأصبح ضريحه بالشرقية مزاراً، ويحتفل بذكرى مولده كل عام.

ويقول الإمام الشافعى: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»

و.. «من لا يحب العلم لا خير فيه، فلا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة، فالعلم حياة القلوب ومصابح البصائر».

والسيدة نفيسه - رضى الله عنها - كانت أكثر الناس حرصاً على التعلم والتفقه فى الدين، فتلقت عن أعلام آل بيتها فى مجالس والدها الإمام «حسن الأنور» والتقت فى المدينة بالإمام مالك - صاحب الموطأ - وعالم المدينة، ناقشت كل القضايا وازدادت معرفة، والناس من حولها ينهلون من بحر علمها فى الفقه والسيرة والحديث، ويقصدها العلماء من كل حدب وصوب، وهى القائلة: «من استقام مع الله، كان الكون بيده وفى طاعته».. فكانت مضرب الأمثال فى العلم والتعلم، حتى لُقِّبَتْ «نفيسة العلم».. كما قدمت نموذجاً إسلامياً وضاءً مشرقاً فريداً للمرأة المسلمة.

القُطبانية والولاية

تقول سليلة بيت النبوة، وروائح السلف الصالح المبارك، السيدة نفيسة رضى الله عنها: «الأولياء، أولئك الذين يخصهم الله بتلك الكرامات، لتكون برهاناً على صدقهم، وتكريماً لهم من الله ونوراً يستضئ به من شاء أن ينسج على منوالهم.. فباب الرحمة مفتوح دائماً لعباد الله، وطريق الطاعة للقرب منه ميسر

لكل من قهر نفسه وشيطانه».

والولى، عند علماء الكلام، هو العارف بالله تعالى وصفاته، القائم بحقوق الله وحقوق العباد، وهو من تولى الله أمره، فلم يكله إلى نفسه ولا إلى غيره لحظة.. وللأولياء كرامة حال حياتهم فى الدنيا، وبعد موتهم، إلى يوم القيامة، وما يظهر من كرامات على يد الأولياء، لا يخالف صريح القرآن، وهى فعل الله يظهرها إكراماً لمن اصطفى، تارة بإلهام، وتارة بمنام، وتارة بدعائهم، وتارة بفعلهم واختيارهم، وتارة بغير قصد ولا شعور منهم.

وفى فتوى للشيخ «محمد بخيت المطيعى» مفتى الديار المصرية، أجاب بها عن سؤال ورد إليه فى ٢٤ يوليو ١٩٤٠:

هل الأولياء لهم تصريف فيما يجرى فى الكون وفى الوساطة بين الله وعباده فى قضاء حوائجهم؟

قال الشيخ: «إعلم أن الله تعالى قال فى محكم آياته: «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة..» وقال تبارك وتعالى: «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور».. فالله قد بين لنا أن له أولياء، وهؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا وكان يتقون، فالولى شرعاً بمقتضى هاتين الآيتين، من يتولى الله ويتخذه مولى له، فيؤمن به ويتقيه ويتمثل أوامره ويتجنب

نواهيه، ويتولاه الله فيخرجه من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم، فكل مؤمن له قدر من الولاية، على قدر إشراق نور الإيمان فى قلبه، وتختلف درجات الولاية على حسب اختلاف درجات التقوى...»

أما التصريف الذى ينسب لهؤلاء الأولياء، فهو إكرام الله تعالى لهم، وإظهار خارق العادات لمن يتوسل بواحد منهم، وليس هذا التوسل ممنوعاً أصلاً، فالمتوسل بالولى إنما يطلب من الله إجابة طلبه، إكراماً لهذا الولى، إعتقاداً منه بأن هذا الولى أكثر قرباً من الله، ولا فرق بين الحي والميت لما تقدم من أن الفاعل هو الله، بل إنه بعد الموت، أقرب منه حال الحياة الدنيوية، لأن الروح بعد الممات غير مشغولة بتدبير شئون البدن!

ومن نفحات السيدة نفيسة رضى الله عنها:

«ليس عزيزاً على الله أن يكرم أولياءه فى دنياهم وفى برزخهم، جزاء ما اتقوا وجاهدوا وصبروا، وقد تتجلى الكرامات من أرواحهم الطاهرة فى البرزخ، أكثر مما تجلت فى حياتهم الدنيا، حتى يكون للكرامة أثر أبلغ فيمن يلمسها أو يراها أو يسمع عنها، فينشرح صدره، ويَخلص فى طاعة ربه، وقد تكون تلك الكرامات بإلهام أو فى رؤيا منامية.. ولا يجحد كرامات

الأولياء إلا من طبع الله على قلوبهم».

وبالنسبة للقطبانية، يرى أن الإمام الحسن بن على بن أبى طالب، عندما نزل عن الخلافة لمعاوية، ابتغاء وجه الله، وحقناً لدماء المسلمين، عوضه الله وآل بيته عنها بـ «الخلافة الباطنية»!.. حتى ذهب بعض الأئمة إلى أن: قطب الأولياء فى كل زمان، لا يكون إلا من أهل البيت.

وعن شيخه أبو المواهب التونسى، يقول المناوى: إن أول من تولى القطبانية من المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وهى السيدة فاطمة الزهراء، مدة حياتها - ثم انتقلت إلى أبى بكر الصديق وعمر ثم عثمان ثم على ثم الحسن رضى الله عنهم أجمعين.

بينما يذهب أبو العباس المرسى، كما رواه تلميذه التاج ابن عطاء الله: أن أول الأقطاب هو الإمام الحسن بن على، رضى الله عنهما.

ويقول السيد أحمد البدوى: «إعلموا أن كل بلاد لها رجال، ولكل رجال قطب يحكم عليهم بمشيئة الله تعالى».

ويصنف أبو بكر السكتانى الملقب بسراج الحرم، هذه المملكة، بقوله: «النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والأبدال أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد، ومسكن

النقباء المغرب، ومسكن النخباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون فى الأرض، والعمد فى زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكه، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة، ابتهل فيها النقباء ثم النخباء ثم الأخيار ثم العمد، فإن أجيبوا وإلا ابتهل فيها الغوث، فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته»!

وطبقاً لهذا التقسيم أو التصنيف، فإن «الغوث» أو ما يعرف أحياناً بـ «قطب الوقت» يأتى على رأس طبقات الأولياء.. ويذكر الشيخ «أحمد رضوان» كيف أنه بعد خمسة وأربعين سنة من المجاهدة وتحمل كافة الآلام والمشاق، أصبح هو نفسه «غوثاً».. وكيف أن رسول الله قد أخذ بيده، وقدمه إلى جميع الأولياء!

كذلك يقول الشيخ صالح بن السماط - تلميذ الإمام الشاذلى - أنه رأي النبى صلى الله عليه وسلم فى رؤيا منامية، وقال له: «إن أبى الحجاج الأقصرى بالديار المصرية - قطب الزمان - قد توفى البارحة، فأخلفه الله تعالى بأبى الحسن الشاذلى»!

الديوان السماوى:

الاعتقاد الشعبى فى الأقطاب والأولياء، جوهره أن الله تبارك وتعالى قد خص عباده المصطفين بـ «امتيازات» لا حدود لها.. يكونون «ديواناً سماوياً» ترأسه السيدة زينب رضى الله عنها.

والقطب أو الولى، تفيض عليه «الأنوار الإلهية» ويحمل «نور النبى» بما يعنى أنه جاز معرفة مباشرة بالله، وعلماً تجاوز علم البشر، من عامة الناس، كما يقول الشيخ أحمد رضوان: «هناك نوعان من المعرفة، المعرفة الظاهرة العادية، ومعرفة باطنية تملأ القلب وتسر الروح»..

وأساس الاعتقاد فى الأولياء، أن القرآن الكريم يحدثنا فى بعض آياته عن «أولياء الله».. والله ذاته «ولى».. والرسول «ولى».. والمؤمنون الصالحون «أولياء».. وهم المقربون، الذين خصهم الله بقدرات خاصة، فيجرى على أيديهم المعجزات التى تعرف بالكرامة أو «البركة».. وكل شىء يحدث بإذن من الله وأمره، وقدرة الولى على التدخل أو التوسط التى منحه الله إياها، تسمح له بالشفاعة، وتعبير «نفعنا الله ببركته» يرادف تماماً «نفعنا الله بشفاعته».

والقصة الأسطورية الشهيرة، عن الطفل الذى أحياه السيد البدوى، تصف شفاعة - فورية الحدث - ومعجزة حققها السيد البدوى بالرجوع النهائى إلى الله، فقد جاءته أم الطفل تتضرع إليه بالله ورسوله «توسلت إليك بالله ورسوله».. قصة بسيطة تصور «تطويع» الشفاعة للقدرة الربانية، فالقادر على إعادة الحياه هو الله، والبركة مزدوجة للوسيط - السيد البدوى - وللرسول.. «فمد سيدى أحمد البدوى يده إليه، ودعا الله، فأحياه

الله ببركة دعواته وببركة جده».. وهذه القصة تذكرنا على الفور بمعجزات السيد المسيح.

فالكرامة هى: «الإشارة أو الرمز الذى يشير إلى تلك القدرة التى يستند إليها الاعتقاد فى الأولياء».. والاعتراف بالولاية، يستند أساساً إلى وجود وإكتساب القوة الروحية، فلابد من دلائل تدعم الاعتقاد فى الولى، كاشتهار بقوة الإيمان والحكمة والتقوى وإنكار الذات، والإسراع فى تقديم العون والمساعدة، وتستمر فاعلية القوة الروحية، إلى ما بعد انقضاء أجل الولى فى الدنيا.

وترتبط مراتب الأقطاب والأولياء - بشكل جوهرى - بالانتساب إلى بيت النبى، فالنسب الشريف يرتفع بمنزلة الولى، ويمثل أهمية كبرى فى الاعتقاد الشعبى نحو أشخاص يتمتعون بـ «الصفة الإستثنائية»!

وعلى سبيل المثال، فالسيد أحمد البدوى، مؤسس أكبر الطرق الصوفية فى مصر، ينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب، وهذا النسب الشريف تأكد فى أقدم التراجم، ومنقوش على مقصورة ضريحه بطنطا، وهو الذى «غادر مكة مزوداً بشجرة نسبه».. يستغيث بجده - صلى الله عليه وسلم - وبأهل بيته الكرام، فى الملمات والشدائد.

وقد ساد العرف بأن تكون «القطبانية» لأحد الأولياء الأفذاذ، والشائع أنهم أربعة: «عبد القادر الجيلانى»، «أحمد الرفاعى»، «أحمد البدوى»، «إبراهيم الدسوقى»..

وهؤلاء الأقطاب لهم «امتياز الشفاعة» فى المفهوم الشعبى.. فهم «سلاطين العارفين» و.. «أصحاب الكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة» و.. «لهم المحل الأرفع من مراتب القرب والمنهل العذب من مناهل الوصل» و.. «ملوك الحضرة الإلهية»!

وقد ظفر بالقطبانية - غير هؤلاء - بعض مشاهير الأولياء، منهم: «عبد الرحيم القنائى» و«أبو الحجاج الأقصرى» و«أبى الحسن الشاذلى».. وأصابها الشيخ «محمد الحفناوى الخلوتى» توفى سنة ١١٨١هـ، والذى قال عنه الجبرتى:

«دانت لطاعته الرقاب، وأخذ العهود على العالم، وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار، وأحيا طريق القوم بعد درسها.. وبلغ هديه الأقطار كلها، وصار له فى كثير من قرى مصر - قبل أن يكون قطباً - نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع، ولم يزل أمره فى ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض.. وصار خليفة الوقت وقطبه، ولم يبق ولى من أهل عصره إلا أذعن له، وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى»!

ويضيف الجبرتى، إنه بموته «إبتداء نزول البلاء وإختلال

الديار المصرية».. فقد كان رحمه الله «قطب رحى الديار المصرية، ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه»!

ومن الأولياء من توطد سلطانه فى مشارق الأرض ومغاربها، حتى «ليأبى القطبانية إذا عرضت عليه!».. فيحدثنا شيخ المؤرخين عن السيد «مصطفى البكرى» الذى «أوتى مفاتيح العلوم كلها، حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه فى مشارق الأرض ومغاربها، وأخذ على رؤساء الجن العهود، وعم مدده سائر الورود.. فإن قطبانية المشرق قد عرضت عليه فأباها»!

وسلالة «البكرية».. متى حان أجل أحدهم، ظهر بعقب قدمه «أثر لدغة» وراثة عن جدهم: أبى بكر الصديق رضى الله عنه، لما لُدغ فى الغار وهو بصحبة النبى صلى الله عليه وسلم، ويقول على باشا مبارك فى خططه: «وهذا أمر محقق عندهم، ثابت بينهم بالتواتر، مشاهد لديهم بالعيان، فى ذكورهم وإناثهم، كبارهم وصغارهم، حتى السقط التام الخلقة.. وبمجرد ظهور ذلك الأثر بالمريض، يقع اليأس من حياته، فصار ذلك دليلاً على تحقق نسبهم الشريف».

وينعقد الرأى فى المفهوم الشعبى - على أن القطبانية لا تخلو لحظة من ولى يقوم بشئونها!.. ومصطلحات شائعة فى دنيا التصوف: «الكشف».. «الإلهام».. «النور القدسى»..

«الذوق».. «المعرفة بالقلب».. «التجلى».. لا شك أنها تؤثر كثيراً فى الاعتقاد الشعبى ومفهومه للشفاعة، والتقرب إلى الأولياء. قد يكشف الحُجُبْ عن أعين القلوب، فينجلى ما هو مسطور فى اللوح المحفوظ!.. و«الكشف الإلهى» يستوعب كل الحقائق بالمجاهدة وقطع العلائق.

ولنيل شفاعة الأولياء، لابد من اجتياز عدة أبواب. فالسيد البدوى يطلق عليه «باب النبى».. والنبى ذاته هو «باب السماء».. وتتدرج مراتب الأولياء، وفقاً لمكانة كل منهم، فالولى «المحلى» يتشفع لأتباعه لدى القطب، الذى بدوره يتشفع لدى الحضرة النبوية.. وهذا التدرج يفسر - بقدر كبير - نظام الموالد المصرية، والطقوس المصاحبة لها. ويسود الاعتقاد بأن إجتماع أكثر من ولى فى موضوع ما، يسهم فى قوة الشفاعة ومدى قبولها، وهو ما يفسر وجود بعض مقابر الأولياء حول ضريح القطب أو بالقرب منه.. ويلاحظ أن السيرة الذاتية لأولياء «الجوار» تتوارى فى ماض مجهول، فالأهم أن «البركة الجماعية تسهم فى فعالية الشفاعة»!

خصوصية الشفاعة:

آمال وآلام الزائرين، لا تمضى إلى أى ضريح بالمصادفة، ولكن شهرة الولى واختصاصه بالشفاعة؛ والبعد المكانى، لهم تأثير كبير فى قصد الزيارة.

فالضريح الذى نتكبد إليه مشاق السفر، يصبح أكثر جذباً ورهبة من ذلك الضريح القريب المتاح زيارته فى أى وقت، فيقال: «الشيخ البعيد سره باتع»!

هناك أيضاً، تقسيم فئوى اجتماعى: أولياء الحضر أو المدن، وأولياء الريف، وبالرغم من أن السيد أحمد البدوى ينتمى إلى الفئة الثانية، إلا أنه كان سبباً مباشراً فى عمران مدينة طنطا ونمو النشاط التجارى بها، واستقبال الملايين من سكان المدن على مدار السنة، مع الوضع فى الاعتبار، أن العادات الدينية لا تخضع للتقسيم الاجتماعى والجغرافى.

ومع تزايد موجات النزوح الريفى إلى العاصمة، وتمدين معظم قرى مصر، يظل الفارق شاسعاً بين الاحتفالات الضخمة بموالد أقطاب وأولياء القاهرة، كالإمام الحسين والسيدة زينب والرفاعى والإمام الشافعى، والتجمعات الصغيرة والمظاهر المحدودة عند أضرحة أولياء القرى. وجماهير الزوار للأقطاب، يفوق كثيراً نطاق المريدين أو من جمعتهم أخوة الطريق، ففى مدينة طنطا، كان لضريح الشيخ أحمد العراقى قداسة ويحظى بالزيارة، أما اليوم، فالقبة مهدمة وأغلق الضريح، بعد أن هجره مريدوه وانضموا إلى أفواج محاسيب السيد البدوى!

وخصوصية الشفاعة، تحددها الأصول الاجتماعية للولى،

البيئة، الجوانب الروحية، وسجل الكرامات، منبع لا نظير له لتبيان الرغبات المطلوب من الولى أن يتشفع فيها، ويشتهر بعض الأولياء، بالتوجه إليهم لتحقيق رغبات النساء، كالزواج للعوانس والإنجاب للعاقرات.

وتساؤلات تتبادر إلى الذهن، هل طلب الشفاعة من الولى تحدده نفس الأمانى أو المخاوف التى كانت شائعة فى العصور الوسطى؟!.. وهل تطورت هذه الرغبات فى عصرنا؟.. وهل شعبية الولى تأسست على شهرته فى تحقيق المعجزات أم لقيامه بدور بارز فى خدمة الدعوة؟

فالبرغم من انفراج بوابة المعجزات على مصراعيها أمام الأقطاب ومشاهير الأولياء، وقدرات تفوق كل خيال - بإذن من الله - إلا أنه من الملاحظ، صمت المصادر التى تناولت مناقب السيد البدوى، وخلوها من قصة شفاء إعجازية.. أو إنجاب عاقر أو وفرة محصول أو شفاء ماشية!..

ربما كان اتجاه مؤلفى المناقب، هو عدم نشر كرامات عادية ومكررة، بينما إطلاق أسرى المسلمين فى بلاد الفرنجة أو معاقبة قاض ظالم.. هى أعمال بطولية جديرة بالذكر والتقدير.

والمحوران الأساسيان اللذان تدور حولهما رغبات التشفع هما: شفاء المرضى، وإنجاب الأطفال - الذكور خاصة - حتى

يومنا هذا، يضاف إليهما بعض الهموم المعاصرة كالرغبة فى اتساع الرزق أو الترقية فى العمل، واجتياز الإمتحانات الدراسية، والتوافق بين الأزواج!

ومن الملاحظ، كثرة عمليات الختان بالقرب من الضريح - فى أيام الموالد - رغبة فى حماية الطفل من الحسد والأمراض بفضل بركة صاحب المقام!

طقوس الشفاعة:

دون الاستفاضة فى وصف ظواهر معروفة، نلاحظ استمرار الثلاثى الكلاسيكى، الزيارة، النذر، المولد..

فالزيارة، ليست مجرد مرور عابر، ويجب أن تؤخذ بمعناها الدقيق، فعملية الاستقبال داخل الضريح، هى لقاء بين الولى «الداعى» والزائر «الضيف».. وعلى الداعى أن يكرم ضيفه، فمن ضاقت عليه الأرض بما رَحُبتْ له حق الموئل، ومن أصابه كرب أو تعرض لمشكلة، أن يلتزم الصبر وانتظار الفرج حتى يتدخل الولى بشفاعته!

والنَذْر، تتعدد أشكاله من هبات المؤمنين للولى، سواء بالتبرع بمبالغ مالية، أو وقف منشأة للصرف على خدمة الضريح. أو بتقديم الطعام والذبائح إلى الزوار، ووفرة النذور

تدل - بلاشك - على بركة عظيمة.. وتشهد على صلاح الولى ومدى قدرته على الشفاعة!

وفى مؤلفات مناقب الأولياء، نلحظ كثرة التعبيرات التى تدل على شعبية بعض الأولياء: «له نُذُر كثيرة».. «كراماته كثيرة مشهورة، ينذر له الناس فى الشدائد»..

والنذر هو الأصل، وأول زيارة إلى ضريح الولى تأخذ شكل الإستجداء لتحقيق إحدى الأمانى - المتكررة - التى سبق الإشارة إليها، وتمثل «إبرام عقد» معنوى مع الولى، بعمل نذر كبير - غالباً عجل أو عدد من الخراف - فى حالة قبول «طلب الشفاعة» فإذا حدثت المعجزة، يجب تقديم الشكر إلى الولى بالوفاء بالنذر.. ثم تصبح الزيارة وارتياد المولد تقليداً متبعاً!

أساليب الشفاعة

تتنوع الأساليب أو التعبيرات الشائع إستخدامها فى طلب الشفاعة، وقصص الأولياء ومناقبهم تزخر بهذه التعبيرات، والتى لم يطرأ عليها أى تطور منذ العصر العثمانى، وهى تعبيرات مباشرة فى صيغة نداء، مصحوبة أحياناً بلفظة «بإذن الله» أو «إن شاء الله»..

وأوضح مثال، فى قصة تحرير السيد البدوى للأميرة «خضرة

الشريفة» وما حدث لها فى «بلاد النصارى»... والتعبير الشائع فى الملاحم والسير: «نظره يا بدوى يا جايب اليسرى»!

وبعض الزوار يجلسون فى مواجهة الضريح، رافعين أيديهم بقراءة الفاتحة ثم يدعو ما شاء من الدعوات لتحقيق أمنياته، ومنهم من يتشبث بالمقصورة ولسانه يلهج بالدعاء والرجاء.. عقب ذلك، يقوم بالطواف حول الضريح بعدد فردى من المرات، مرة أو ثلاث سبع مرات، وإذا حدث خطأ فى الطواف، سرعان ما يصححه سدنة الضريح!

وقد يكون الدعاء سراً أو بالتمتمة أو جهراً، ومنهم من يواجه الضريح، مخاطباً صاحب المقام، على سبيل المثال «السيد البدوى» قائلا: «باب النبى يا سيد».. يا «شيخ العرب».. يا «بو فراج».. «نظره يا بدوى».. أو التعبير الكلاسيكى الشهير «شى لله يا سيد»!

وقد يستخدم هذا التعبير فى النداء لأولياء آخرين: «شى لله يا حسين» لكنه أكثر شهرة وخصوصية بالسيد البدوى!

هناك أيضاً، صيغة مشهورة «دليل، يا دليل يا سيد» ويتباين تفسير هذه الصيغة، فيرى البعض أن المقصود بها، أن السيد البدوى هو الدليل للحصول على رضا الله ونيل الشفاعة، وهذا التعبير يرادف معنى «باب النبى»..

بينما يرى البعض الآخر أنه: دليل الحيارى والمظلومين ومن لا شفيع لهم، والدليل للعثور على المفقودات: فكم من خواتم فُقدت فى النيل، وعثر عليها بفضل بركته - فى بطون الأسماك- وكم من حمير سرقت ثم عادت إلى أماكنها!.. وكم من أطفال تاهوا ثم عادوا بعد فقدان الأمل فى عودتهم.. وكم من أسرى تحرروا ووجدوا أنفسهم فى وطنهم!.

وعند أبواب الأضرحة، تباع كتب صغيرة للدعاء وقضاء الحاجات، تتضمن بعض السور القرآنية أو آيات من القرآن، تفيد فى الدعاء والوقاية، وبعض أوراد الصوفية، وتضرعات فى شكل أبيات شعرية، ودعوات «مُسْتجابة»!

وقد يلتزم البعض السكون التام وهو جالس أمام الضريح، إذ ليست هناك ضرورة للتعبير بصوت مسموع، عما يعرفه صاحب المقام جيداً!.. بينما يظل التعبير الشعبى الأشهر بطلب «المدد» هو القاسم المشترك فى الزيارات وحلقات الذكر والموالد.. ومفتاحاً لشفاعة الأولياء!

المجاذيب!

حالة «الجَذْب» هى مرحلة على طريق بلوغ مرتَبة الولاية، وقد تستغرق سنوات طويلة، يطوف خلالها «المجذوب» ببعض البلاد، ويمكث كثيراً بالأضرحة، ويطوف ببعض بيوت الأحبة من المريدين وبحلقات الذكر.. ويأتى من الأفعال ما قد يشكك فى قواه العقلية!.. ونرى من هؤلاء المجاذيب حول المشهد الحسينى ومسجد السيدة الطاهرة ومسجد الإمام الشافعى، وفى الموالد بشكل عام.

والمجاذيب، هم أناس أخذهم الله من أنفسهم، فلا ينتمون إلى دنيانا - طبقاً لتعريف بعض شيوخ السجادة - ولا يعاملون أحداً إلا أنفسهم، وينبغى معاملتهم بالعطف والحسنى.. ومن الحكمة، أن نجعل مسافة بيننا وبينهم!.. فإذا أتاك أحدهم، إعطه ما يسأل، فإذا سألك مالاً فلا تمنحه، فبالنسبة للمجذوب «الحقيقى» يستوى المال والتراب، كما يستوى عنده ارتداء الملابس والتجوال عارياً لا يستره شىء، ولا تسأله، فإذا أعطاك شيئاً - ليمونة مثلاً - فتأكد أن بها البلاء، فلا تلبس ملابسهم

ولا تؤاكلهم!

وربما تنتهى مرحلة الجذب هذه، وينتبه «المجذوب» لكن عقله يظل لفترة غير مستقر، ومنهم من يثبت فيها إلى آخر حياته، أما الذين ينتقلون من هذه المرحلة فيتأهلون للولاية، وخلال فترة الإعداد هذه، يتعرضون لاختبارات قاسية، قد تبدو غير مرضية فى نظر عامة الناس!

ومن بين مريدى كل طريقة، نجد عدداً من المجاذيب.. مثل الحاجة «عائشة» التى تطوف مع «الشيخ زاهر» شيخ سجادة الطريقة الخلوتية، بكفر إبراهيم - شرقية، فى كل الحضرات، مرتدية ثوباً أبيض، وتحمل على كتفيها «بندقيتين خشبيتين»!.. ولا تنبس بكلمة واحدة، وأخرى مثلها تشاهد فى مقدمة موكب أو زفة خليفة السيد البدوى بطنطا.. ومجذوب مولانا الإمام الحسين الشهير، الذى كان يزين مرقعته بأغطية زجاجات المياه الغازية، والسيف الخشبى لا يفارق يمينه!.. وكان معروفاً عند الكثيرين باسم «الچنرال»!

ثم الشيخ «زكريا» من بلدة «الكوامل - سوهاج» والذى رأيته عدة مرات ببيت شيخ الطريقة البرهامية بحى الأميرية، والذى كان الجميع يتسابقون للحصول على بقية كوب الماء الذى شرب منه، وسمعت الكثير عن كراماته، فالأرض تطوى له فى لمح من

البصر، وكم من سائق «بيچو» رفض أن يستقل الشيخ زكريا سيارته إلى سوهاج، وعند وصولهم إليها، كانوا يجدوه أمامهم كما تركوه بالقاهرة.. وزياراته الخاطفة إلى مكة والمدينة.. وأن السيدة زينب «رئيسة الديوان» تشرف بنفسها على استحمامه!!

أما الشيخ «سعيد نور» السودانى الأصل، مقرئ جامع «الخازندار» بشبرا فى الأربعينات، صاحب الأسلوب المتفرد فى تجويد القرآن، شديد البساطة، عظيم التقوى والورع، فيبدو أنه أيضا مر بتلك المرحلة، حيث كان يختفى لمدة ثلاثة أيام أو أسبوع أو أكثر، فلا تعرف عنه أسرته وأصدقاؤه المقربون شيئاً بالمرة، وعندما ألحوا عليه بالسؤال؟ أجاب بأنه كان يقرأ القرآن على الملائكة!!

ويقول الشيخ زاهر عن الحاجة «عائشة» إنها فى حالة جذب، وربما تكون مرحلة على طريق بلوغ الولاية.. والتى مرَّ بها والده «عبد الله» وجده «أحمد أو زغلل» من قبل، وفي حالة جده، فقد استغرقت حالة جذبه نحو اثنى عشر عاماً، قضاها فى الطواف ما بين السويس والإسماعيلية، ومسجدى الإمام الحسين والسيدة زينب!

وقد حدث فى هذه المرحلة، أن شاهد جده فى أحد الموالد، بعض الناس يصحبون أطفالهم، فى هذه اللحظة، تذكر أولاده،

وعندما ذهب لينام فى إحدى الزوايا، شاهد فى منامه: الأقطاب الأربعة يقولون: «يُشطب أحمد من سجل الأولياء»!.. لكن السيدة زينب اعترضت قائلة: «أحمد إبنى..» فاستيقظ، وفى الحال «محا أسرته من قلبه حتى لا يبقى فيه غير الله»!

ففي فكر غلاة الصوفية، أن «السالك» الصادق لا يستطيع أن يقيم أسرته، إلا فى موقف اللاهى عن حبه الوحيد!.. وقد شوهد «فضيل» الذى توفى بمكة سنة ٨٠٣هـ، يبتسم لمرة واحدة خلال ثلاثين عاماً، وكانت عند وفاة إبنه!!.. فبالرغم من أن الإسلام يحض على الزواج، وكان لرسول الله أسوة حسنة في هذا الشأن، إلا أنه منذ فجر الفكر الصوفى الإسلامى، تبدو الأسرة وكأنها أكبر عائق فى الطريق إلى الله، وعلى المجذوب أن يمحو من قلبه كل شىء عدا الذات الإلهية، حتى الأهل والأولاد، ولا مكان في قلبه سوى لله، فالله غيور، ولا يستطيع المرء أن يحب أكثر من واحد فى الوقت ذاته، ولا جعل الله من قلبين فى جوفه!

ويقول الشيخ «أحمد رضوان» الذى كان يلقب بـ «زعيم مجاذيب الصعيد» فى أوائل سنى حياته: «الجذب، هو حالة اختطاف إلهية، يمكن أن يحدث بها انقطاع حتى يعود المجذوب ثانية إلى حالته الطبيعية، وقد يكمل الانجذاب دون أن يوقظ منها»!

ويروى الشيخ كيف أنه قضى نحو ثلاثين عاماً فى بلاء ومحنة، حتى كرهه أهل قريته، ووجدوا فيه إنساناً بغيضاً، حتى تمنى له بعضهم الموت.. «ولكنى لم أغضب منهم، ولم أدع عليهم، بل دعوت لهم دائماً أن يرقق الله قلوبهم و.. أيديهم»!

الذكر ومجالس الإنشاد

يعتبر الصوفية «الغناء والسماع» أحد المقامات على طريق الوصول إلى الله، ويسمون هذا الطريق: السفر أو الحج، ولأجل تحقيق الوصول، لابد من المجاهدة فى قطع عدة مقامات، كل مقام أشبه بمرحلة، وهى على التوالى، مقامات: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، التوكل، الرضا.. والمقام الأخير يسمونه: راحة النفس أو السلام الروحى، والتوصل إليه يكون بالوجد والحبور، والغناء والسماع، فيقولون إنهم يسمعون «الهاتف السماوى» فى آية قرآنية تُرتل أو شعر يُنشد أو فى أصداء موسيقى، فالله أوحى إلى كل مخلوقاته أن تسبحه بلسان الحال!

و«الذكر» هو غاية المتصوفة من أجل إفراغ محتوى العقل والقلب من كل شىء عدا الله، واستحضار عظمة الله فى القلوب الخاشعة المخلصة، لابد وأن تسيطر على كل كيان المتصوف، فيمتلكه الإحساس بأن كل ما حوله يشاركه التسبيح والعبادة، وكان الشيخ «أحمد رضوان» تذهب روحه ويرحل قلبه إلى ربه

خلال «الحضرة».. وعندما يستغرقه الذكر فى خلوته بالصحراء «كان يسمع لا إله إلا الله يرددها الحصى والشجر والماء»!

والذكر الجماعى.. يعد أبرز نشاطات الجماعات الصوفية، وهو رقص شعائرى يؤدى - أحيانا - على أنغام لحن يؤديه «قوال» أو منشد، يصحبه قارعون للدفوف، وعازفون على المزمار والناى، من أجل جلاء القلب بالذكر وتهيئته لاستقبال الفيض النورانى.

ويعتمد الصوفية بعض الآيات القرآنية، منها: «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم..» و«اذكرونى أذكركم» و«اذكروا الله ذكراً كثيراً».. المرء لسانه مشغول دائما بذكر الله، منها على سبيل المثال: «ما من ساعة يغفل المرء فيها عن ذكر الله، إلا وندم عليها يوم القيامة» و«جلاء القلب ذكر الله..»

وما روى فى سُنَنْ الترمذى عن تشبيهه - صلى الله عليه وسلم - حلقات الذكر بحدائق الفردوس.

لكن تجدر الإشارة إلى أن بعض كبار المتصوفة: يحذر من الوقوع فى خطأ - إن كل ما يحتاجه الإنسان هو الذكر فقط - فهذا يدخل فى إطار النوافل والاجتهاد فى العبادة، التى يجب أن ترتكز على قاعدة سليمة من الإيمان الخالص والأداء المخلص للفروض الدينية، حيث «ينبغى للمرء أن يكون عادلاً قبل

أن يكون كريماً».. أو مثلما قال داود الأنطاكى: «أن يمتنع عن الشر قبل أن يفعل الخير»..

يقول الشيخ «محمد الطيب» بالقرنه «فى البدء كانت الأرواح كلها روح واحدة، ثم انقسمت وتوزعت على الأجساد، غير أنها تتجمع ثانية أثناء الذكر لتصبح روحاً واحدة»!

ويحظر «الشيخ زاهر» طقوس الدوسه، واستخدام الآلات الموسيقية، والتدخين، بإعتباره يضع حجاباً بين الإنسان وربه، وإذا كان غالبية مريدى ساحته من الفلاحين البسطاء، فإن من بينهم أيضاً: ضباط، وتجار، وجراحون، وأطباء أسنان!.. ويقول الشيخ الطيب: «إن شيوخ الخلوتيه من خريجى جامعة الأزهر، وأحوالهم المالية مرضية، والذكر يحتاج لأناس محترمين في مكان محترم»!.. ويؤثر عن القطب «الرفاعى» قوله: «قرب قلبك من الذاكرين، لعله يتنبه من الغفلة»..

وبالإضافة إلى المناسبات الإحتفالية كمولد النبى وموالد الأولياء، فإن حلقات الذكر تقام طبقاً لتقليد كل طريقة، مرة أو مرتين فى الأسبوع، فى الساحة حيث يتحلقون حول ضريح الولى المؤسس، أو فى بيت أحد النواب أو المريدين، وتنعقد «الحضرة» أيضا فى مساجد بعض أهل البيت، فى أيام محددة من الأسبوع، على سبيل المثال: عقب صلاة الجمعة مباشرة

بمشهد الأمام الحسين ومسجد السيدة زينب، وعقب صلاة العشاء، يوم الأحد، بمسجد السيدة نفيسه، ويوم الأثنين بضريح السيدة فاطمة النبوية، والثلاثاء بضريح سيدى أبى السعود..

ويقيم دراويش «المسلمية» الحضرات، فى المناسبات الدينية فقط، لكنهم يجتمعون مرتين أسبوعياً لقراءة «بردة البوصيرى».. وتتميز كل من الطريقة «النقشبندية» والطريقة «الخلوتية» بالتزام الذكر جلوساً إلى الأرض، يتلون أورادهم فى نغم هادئ متناسق، وينتسب إليهم عدد من الحاصلين على تعليم عال ويلاحظ فى حلقات «الحامدية الشاذلية» بالمساجد.. وقوف الذاكرين متشابكى الأيدى، فى دوائر متداخله، يتمايلون بهدوء يمياً ويساراً، أو فى عنف من الأمام إلى الخلف، على تصفيق «القوال».. بينما حلقات الذكر التى تعقد فى منازل الأحبة من المريدين، تؤدى جلوساً، ويبدأ الإنشاد لطيفاً شجياً إلى أن يسرع الإيقاع، بينما يزداد عنف حركات الذاكرين بالنسبة للطريقة «البرهاميه» و «البيوميه».

ويقود الشيخ «زاهر» الحضرة، بادئاً بترديد كلمة التوحيد ثم لفظ الجلاله بهدوء إلى أن يتسارع الإيقاع رويداً رويداً.. ثم ترديد الأسماء «حى».. «قيوم».. إلى لفظة «هو» التى يجب أن تصدر قوية من القلب مباشرة، ويقول الشيخ: بالنسبة للساكنين

فى الطريق، نطق لفظ الجلاله – فى هذه الحال – بشكل صريح، هو ذكر ناقص.. «لأن من يفهم، لا يحتاج لأكثر من الرمز، فالتلفظ بالاسم يصرف القلب عن مراده: ذات الإله»!

ويتضمن الشكل العام لحلقة الذكر، وقوف الرجال، وأحياناً بعض النساء، فى صفوف منتظمة متقابلة، أو دوائر متداخلة، يتمايلون يمنة ويساراً فى البداية، مع تزايد لفظ الجلالة «الله» ثم يتسارع الإيقاع، فيتمايلون للأمام وإلى الخلف، بينما أقدامهم ملتصقة بالأرض، متشابكى الأيدى، وفى القلب من الصفوف، يقف الشيخ أو من ينوب عنه، يقود الحضرة، مُصَفقاً بيديه مشيراً إلى تغيير الإيقاع فى الوقت المناسب..

وأحيانا يغشى على بعض الذاكرين، فيتساقطون إلى الأرض.. وتتزايد سرعة الإيقاع لمدة عشرة أو خمسة عشرة دقيقة، ثم يتباطأ بالتدريج.. وقد يستمر الذكر لعدة ساعات، ويتعاقب الشيوخ لقيادة الحلقة، ويظل القوال على رأس الصفوف، بينما للذاكرين حرية الاستمرار أو ترك الحلقة وقتما يشاءون..

وبالنسبة للطريقة «البراهمية» ففى الموالد، يؤدون عقب صلاة العصر، طقساً أو شعيرة يطلق عليها «العصرية».. حيث يجلس المريدون داخل سرادق المشيخة، فى صفين متقابلين، جالساً

بينهما فى المقدمة «شيخ الطريقة».. ويبدأ القوال بذكر النسب الشريف للشيخ، مروراً بجده الأكبر «إبراهيم الدسوقى» منتهياً إلى النبى صلى الله عليه وسلم - ثم يرددون كلمة التوحيد، بعدها يهّبوا واقفين، ليبدأوا شعائر الذكر بلفظة الجلالة، ثم اسم الإشارة «هو».. يعقبه بعض من أسماء الله الحسنى «حى».. «قيوم».. وعقب الانتهاء، يتبادلون المصافحة وتحية الشيخ وتقبيل يده!

لسان الحال و"القوال":

استقر فى فكر الصوفية، أن الله قدأوحى إلى جميع مخلوقاته أن تسبحه بـ «لسان الحال».. كما استقر فى أفهامهم: أن جمال الصوت أو النغم شىء صادر عن عالم علوى، يتذكر به السامع ما كان من لقاء الأرواح بالحى القيوم - قبل حلولها فى الأبدان - وعلى السامع أن يوائم المعنى مع الواقع «حاله مع الله»..

ويقول حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى: إن «الصوفية فى مقام الرضا، أرواحهم من تنسم روح الوصال سكرى، وهو ما يتحقق بالوجد والحبور والإنشاد والسماع».. وبعضهم يفسر قوله تعالى: «فهم فى روضة يحبرون» أى: يسمعون، وبفلسفته

التحليلية العميقة وتجربته الروحية، يضيف الإمام الغزالى إن السماع: «وسيلة فعالة في تحقيق أشواق الفناء في الله»..

فلا خير ولا جمال ولا محبوب فى الدنيا، إلا وهو حسنة من حسناته، وأثر من آثار كرمه، وكل حسن وجمال تدركه العقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس ليس إلا ذرة من خزائن قدرته، ولمعة من أنوار حضرته.. وإن الذى «لا يحركه الربيع وأزهاره، ولا العود وأوتاره، فاسد المزاج وليس له علاج»!

ويسمى الصوفية المغنى أو المنشد: «القوال».. وقد آثروا هذه التسمية تحرزاً من إستخدام لفظة المغنى، التى اقترنت في الأذهان بمعنى اللهو والمتع الحسية، ولأنهم يستمدون الدليل على الشغف بالغناء والسماع من قوله تعالى: «فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه».. ويذهبون إلى أن - أداة التعريف - فى كلمة القول للتعميم والاستغراق، فهى تشمل كل قول، وقد ذاع هذا المصطلح بين الشعوب الإسلامية، حتى أنهم مازالوا فى الهند يسمون مجالس الغناء والطرب: «قوالى»..

ولكل طريقة «قوال» خاص أو مداح، وفرقة من المريدين تقوم بالعزف وترديد المذاهب، تسمى «الشيالين».. وقد يستأجر - فى الموالد - منشد محترف.

والأغانى من طبيعة المناسبة، وجوهر المعتقدات الدينية،

كالحب الإلهى ومدح الرسول وآل البيت، ومآثر أولياء الله والأقطاب وكراماتهم، وملاحم وسير شعبية.

وفن الإنشاد، له قواعده وأصوله فى المجتمعات الصوفية، كما أحاط أئمة الصوفية السماع بحدود وقيود من الآداب، لا يحتملها إلا أولوا العزم من الرجال، منعاً من الإنزلاق فى هوى النفس ولذة الحس!

وقد سُئل «ذو النون المصرى» عن الصوت الحسن، فقال: «مخاطبات وإرشادات، أودعها الله فى كل طيب وطيبة».. وعن السماع، قال: «إنه تأثير إلهى يحرك القلب لرؤية الله، وأولئك الذين يصغون إليه يسقطون فى المعصية».. ويقول الشبلى: «السماع ظاهره إغراء وباطنه موعظة»!

والصوفية فى إنشادهم يرقصون وجداً وحباً، وشيئاً فشيئاً يغيبون عن حواسهم ونفوسهم، يتلظون بنار الشوق وأوار العشق للذات الإلهية.. ويتغنون بكلمات «سلطان العارفين» الشيخ الأكبر إبن عربى، الذى أوغل فى مفازات «وحدة الوجود» وانطلق منها إلى آفاق العشق الإلهى، وهو القائل:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه، فالحب دينى وإيمانى

وأشهر من ساروا على هذا الدرب: «سلطان العاشقين» عمر بن الفارض، فهو شاعر العشق الإلهى بغير منازع، وقد سلك

طريق المجاهدة والرياضة النفسية، فساح فى وادى المستضعفين بالجبل المقطم، كما ساح بأودية مكة، حيث قضى بها خمسة عشر عاماً، عاد بعدها إلى القاهرة - التى ولد بها - ليعطر أجواءها بنفحات من طيوب شعره، وله ديوان شعر كبير، اشتهرت منه قصيدة «الخمر الإلهية» التى يصدح بها كثيراً منشدو الصوفية، والتى تبدأ بـ:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن تخلق الكرم

حوار مع:

سماحة نقيب السادة الأشراف

لقد شرف الله ذرية رسول الله إلى العالمين - صلى الله عليه وسلم - لشرف جده بقوله تعالى: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» وهم الذين شرفهم الله بانتسابهم إلى الدوحة النبوية الطاهرة بزواج السيدة فاطمة الزهراء بالإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فشرفهم نابع من شرف الأصل للفرع..

وقد أجمع علماء الأنساب، على حصر الأشراف فى ذرية الإمامين الحسن والحسين سبطى رسول الله، ثم تم تقسيم هذه الذرية الشريفة إلى إثنى عشر سبطاً.

ويذهب «جوتين» إلى أن الأشراف المقصود بهم: النبلاء والعرب الخلص، ولفظ «الشريف» فى اللغة يطلق على الرجل النبيل الماجد أو من كان كريم الآباء من جميع العرب، ثم اختص به آل بيت النبى محمد صلى الله عليه وسلم - شاملاً

العلويين والجعفريين والعباسيين، فلما أسس الفاطميون دولتهم في مصر، قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين رضى الله عنهما.

ولنقابة السادة الأشراف تاريخ حافل، منذ تأسيسها في عهد الدولة العباسية، في القرن الثالث الهجرى، ثم بلغت في عصر الدولة الفاطمية، التي تعاقب خلفاؤها على رئاستها.. وفي عصر الامبراطورية العثمانية، كان نقيب الأشراف - الذى يَصْدُر قرار تعيينه بفرمان من الباب العالى - مقيماً في استانبول. ويقوم هو بدوره في كل عام، بتعيين نقيب كل ولاية تابعة للأمبراطورية العثمانية، وكان على كل من هؤلاء، أن يسترضى - نقيب الأشراف التركى - بأثمن الهدايا؛ حتى يضمن إعادة تعيينه في العام التالى!

وكان نقيب الأشراف في تلك العصور، يحظى بمكانة متميزة، متمتعاً بنفوذ دينى واجتماعى وسياسى، ومقدماً على كل رجال الدولة..

ولما انحسر هذا الدور لنقيب السادة الأشراف وللنقابة في العصر الحديث... كان لنا هذا اللقاء مع الشريف/ **أحمد كامل ياسين الرفاعى** نقيب السادة الأشراف وعضو المجلس الأعلى للطرق الصوفية وشيخ الطريقة الرفاعية ورئيس مجلس إدارة

ليحدثنا عن تاريخ أعرق نقابة في مصر، ودورها بالنسبة لسلالة أهل البيت وتجاه مجتمعنا.... وفي البداية، أود أن أنوه إلى الأخلاق الرفيعة التي تميز الرجل - فكراً وسلوكاً - وهي بلاشك الميراث الجميل لجده رسولنا الكريم وعترته الطاهرة، وفهم عميق لكل القضايا، وطموحات وآمال بلا حدود...

*** في بداية لقائنا، أرجو من سماحة نقيب السادة الأشراف أن يحدثنا عن نشأة النقابة وتاريخها:**

- تأسست أول نقابة للأشراف في العهد العباسي، وبالتحديد في القرن الثالث الهجري، ومن أشهر من تولوا نقابة الأشراف في ذلك الوقت - الشريف الرضي الشاعر المشهور الذي جمع خطب وأقوال الإمام علي - رضي الله عنه - في كتاب نهج البلاغة... وكان للنقيب احترامه وقدره عند المسلمين.... ثم أنشأ العباسيون نقابة خاصة بهم في بغداد لتقوم بتعريف العباسيين بعضهم ببعض حتي لا يندس بينهم غيرهم، حدث ذلك إبان قوة الدولة العباسية، فلما ضعفت الخلافة العباسية وانسلخت منها دويلات أخرى، بزغ نجم الخلافة الفاطمية في مصر، ووافق الفاطميون على إنشاء نقابة للأشراف بمصر تجمع شمل الأشراف من بني الحسن

والحسين، وكان أول من تولى هذا المنصب المرموق فى مصر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله نفسه سنة ٣٥٨هـ ثم تلاه في هذا المنصب الخلفاء الفاطميون على التوالي: أبو منصور نزار العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله ثم الظاهر لإعزاز دين الله، أبو تميم المستنصر بالله، المستعلى بالله، الآمر بأحكام الله. واستمر الحكم الفاطمى ٢٠٦ سنة إلى أن سقطت دولتهم عام ٥٦٤هـ - ثم قامت الدولة الأيوبية وأعقبتها الدولة المملوكية فى مصر، ولاقى الأشراف كل تكريم ورعاية دون وجود نقيب، وإستمر الوضع هكذا حتى العهد العثمانى، وبدأ تعيين كبير للأشراف أو نقيب لهم، وكان نقيب الأشراف فى ذلك العهد مقدماً فى جميع التشريفات الرسمية على جميع رجال الدولة، وكان النقيب عضواً فى ديوان الباشا ويشرف على أملاك النقابة ويدير أوقافها ويصرف الرواتب والخيرات للمستحقين، كما كان ينظر فى قضايا الأشراف وتظلماتهم، واستمر هذا الوضع إلى أن قدمت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م لغزو مصر بقيادة نابليون بونابرت، وكان يتولى النقابة آنئذ السيد خليل البكرى، ولما توفى السيد خليل، إختار الأشراف السيد عمر مكرم الحسنى ليكون نقيباً عليهم، وقد أحسنوا الاختيار فى هذه المرحلة التاريخية الحرجة فى تاريخ مصر، وبدأت تتفجر

مواهب السيد عمر مكرم وقدرته على قيادة الشعب المصرى في مواجهة قوات الإحتلال، فقاد السيد عمر ثورة القاهرة الثانية ضد كليبر سنة ١٨٠٠ إلى أن تم جلاء الفرنسيين، وإختيار الشعب محمد على باشا ليكون والياً عليهم حيث قد رضيت عنه الرعية والعلماء «وساند السيد عمر مكرم محمد على باشا وألبسه بنفسه «الكرك والقفطان» شعار الولاية عام ١٠٨٥ فى موكب وطنى عظيم.. ولكن محمد على استبد بالحكم وتنكر للزعامة الشعبية الممثلة فى شخص نقيب الأشراف السيد عمر مكرم وعزله من منصبه سنة ١٨٠٩، ونفاه إلى دمياط، ثم إلى طنطا....

وبذلك قضى محمد على على الزعامة الشعبية واستبد وانفرد بالحكم... أما منصب النقيب فقد استمر بصورة رسمية بعد السيد عمر، لكن دون فاعلية كما كان فى عهد السيد عمر، وقام محمد على بتعيين السيد محمد السادات فى أغسطس سنة ١٨٠٩، ثم تتابع النقباء على التوالى، السيد محمد الدواخلى فى مارس ١٨١٣ والسيد البكرى ١٨١٦، ثم السيد على البكرى إلى أن توفى ثم خلفه ابنه عبد الباقى البكرى١٨٨٠، وبموته خلفه أخوة السيد محمد توفيق البكرى فى يناير ١٨٨٢، وفى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى وبالتحديد عام ١٨٩٥ صدر الأمر

لعالى بتعيين نقيب للسادة الأشراف وتحددت مهام النقيب واختصاصاته فى هذا الأمر العالى وكيفية إدارة أعمال النقابة وللعلم مازال العمل جارياً به حتى الآن - يعنى مائة سنة وعامان، سارى إلى اليوم، وقد قدمنا مشروع قانون جديد إلى مجلس الشعب، وأصبح السيد محمد توفيق البكرى - نقيباً رسمياً للأشراف، بمقتضى الأمر العالى بالإضافة إلى عمله كشيخ لمشايخ الطرق الصوفية، وكانت المرة الأولى التى يجمع فيها نقيب الأشراف بين النقابة ومشيخة الطرق الصوفية، وجمع الشيخ البكرى بين الوظيفتين واستمر ذلك حتى عام ١٩١٤، ثم أصبح السيد عمر مكرم الثانى نقيباً للأشراف، وهو حفيد السيد عمر مكرم الكبير من ابنته السيدة حنيفة، أى أنه من أشراف البطون وإستمر فى هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩٥٣ ولم يعين أحد بعد ذلك وأصبح هذا المنصب شاغراً، حتى قيض الله من يعرف قدر أهل البيت وشرفهم، عندما أصدر الرئيس حسنى مبارك قراراً جمهورياً بتعيين شقيقى محمود كامل ياسين نقيباً للأشراف فى فبراير ١٩٩١، ثم توليت هذا المنصب خلفاً له طبقاً للقرار الجمهورى رقم ٣٣٠ لسنة ١٩٩٤.

*** كيف يتم اختيار نقيب السادة الأشراف؟**

- يجتمع الأشراف فى مصر ويختاروا واحداً من بينهم

ليكون نقيباً لهم، أي أن القرار الجمهوري هو تتويج لعملية الإختيار، وبذلك بدأ النشاط الواعي لنقابة الأشراف في خدمة الدعوة الإسلامية السمحة، وحفظ أنساب أهل البيت، قررنا أن نتبع أسلوباً علمياً، فليست المسألة مجرد ملفات وسجلات، وأصبح لدينا أرشيف على أجهزة كومبيوتر من أجل حفظ أنساب أهل البيت وتسجيلها.

*** ما هي طبيعة العلاقة بين نقابة السادة الأشراف والمجلس الأعلى للطرق الصوفية؟**

- نقابة الأشراف شيء والمجلس الأعلى شيء آخر وقد أتشابه مع السيد محمد توفيق البكري، فقد كان شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وأنا عضو المجلس الصوفي وشيخ الطريقة الرفاعية.. والطريقة الصوفية عموماً - وليس الرفاعية فحسب - هي سلوك وعمل يقرب إلى الله في رضا وسعادة بقراءة أوراد وأحزاب وذكر وحلقات دينية، في إطار من الشريعة والسنة، وهو منهج تلتزم به باختيارك.

أما نقابة الأشراف فهم سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، هؤلاء عائلة مثل أي عائلة تجمع بين الثرى والفقير، والمتعلم والجاهل، وقد تجمع بين المنحرف قليلا والمثالي أو الملتزم.. مثل أي أسرة وعليّ توجيه هذه الأسرة إلى الطريق الصحيح..

فأنا أجلس إليهم وأتحدث معهم وهم إلى حد ما يسمعون ويتأثرون لابد من استغلال هذه الفرصة لكى نشربهم المنهج السليم وبث القيم النبيلة والتحلى بمكارم الأخلاق.

*** كيفية التحقق من النسب الشريف وما هو الإجراء المتبع فى مثل هذه الحالة؟**

– عندما توليت النقابة، شكلت لجنة تسمى «لجنة تحقيق الأنساب» من أساتذة متخصصين، ولكى نتحقق من نسب واحد، هناك حالتان، النقابة عندما ظلت ٣٨ عاما مجمد نشاطها، لم يكن أحد يعرف شيئاً عن نقابة الأشراف، الناس الذين تخطوا الخمسين عاماً، وكبار السن الذين كان عمرهم على سبيل المثال سبعين عاماً أو ستين كان لديهم محرزات أو أوراق قديمة تثبت نسبهم، كانوا يحتفظون بها ملفوفة داخل علبة طويلة من الصفيح يعتزون بها كأعز ما يملكون، لكن بعد رحيل هذا الجيل، أتى بعدهم جيل كانوا صغاراً وعندما شبوا لم يعرفوا أصولهم الشريفة.. لكن عندما تأتيه الفرصة ويعرف حقيقة أن جده نسبه شريف... عندئذ يسعى جاهداً إلى الحصول على ما يثبت هذا النسب.. أنا عندى سجلات عمرها ١٥٠ سنة فيأتينا ويخبرنا أن جده فلان من بلد ما ويريد أن يبحث عن اسمه.. إذا وجد ورقة بها صورة مما هو مسجل لدينا، نبحث عن رقمه لدينا ثم يمنح

الطريقة الثانية:

هناك عائلات لديها مشجرات «شجرة العائلة» عندئذ يتم البحث عن آخر اسم مسجل ومدى صلة القربى إلى أن تتحقق صلة النسب.. هناك أيضا بالتواتر ففى صعيد مصر، عائلات من أصول شريفة.. على سبيل المثال، مدينة أخميم بها أكثر من ثلاثين ألفاً أصولهم شريفة، والعائلات يحفظون بعضهم البعض جيداً بالتواتر أى جيلاً بعد جيل، فيذكرون لك نسب عائلة من الأشراف أصولهم.. أجدادهم وآباءهم.. بأسلوب رائع لا يتطرق إليه أدنى خلل.. ثم نعود إلى بعض المستندات كشهادة وفاة مثلاً أو وثيقة تتعلق بملكية زراعية أو إرث ولدى متخصصين.. حافظين كل الدرجات، وقد منحت هذه اللجنة كل الصلاحية، دون تدخل أى مخلوق حتى أنا كنقيب للأشراف، لا أتدخل مطلقاً، ومسئوليتهم عن هذا العمل كاملة، ثم هجرات القبائل العربية التى قدمت إلى صعيد مصر خاصة عقب كربلاء، السيدة زينب هى رأس هذه الهجرات والشعب المصرى بطبيعته محب لآل البيت ثم توالت بعد ذلك، هناك هجرات وفدت من المغرب.. ذهبت إلى الجزيرة العربية ثم أتت إلى مصر واستوطنوا صعيد مصر.. على سبيل المثال أبو الحسن الشاذلى...... الذى استقر

المقام على طريق القوافل بمنطقة عيذاب...... وعبد الرحيم القنائس وغيرهما.......

*** لنقيب السادة الأشراف حقوق وعليه أيضا واجبات تجاه سلالة أهل البيت.. فما هى هذه الحقوق والواجبات...؟**

– ليس لى أى حقوق سوى أن الأمر العالى السارى العمل به إلى اليوم، أول بند ينص: بناء على ما عرضه علينا مجلس النظار – أمرنا بما هو آت: يناط نقيب الأشراف بإدارة شئون أوقاف الأشراف واستغلالها، بحسب ما تقتضيه شروط الواقفين لها.. إلخ

أما الواجبات فهى رعاية الأشراف وتعريفهم بعضهم ببعض.. منذ أن توليت أسست ٢٢ نقابة فرعية للأشراف.. ودورها تحقيق هذه الأنساب.. فالعائلات هناك تعرف بعضها جيداً، ٥٠٪ من تحقيق النسب.. الوثائق، ومن واجبها تعريف وتقريب هؤلاء الأشراف ببعض لأنهم أسرة يجب أن تعرف بعضها جيداً.. الخطوة التالية كبيرة فأنا لدى ما بين اثنين وخمسة ملايين شريف فى مصر، ما تم تسجيله منذ أن توليت نحو ١٨ ألفاً.. رقم بسيط نعم.. لكن يعد انجازاً فى حد ذاته، حيث يتم تسجيل نحو ألف فى الشهر طبقاً للدراسة التى أعددتها، فهذا جهد كبير، لكن هذا التراكم كان نتيجة أننا ظللنا

دون نشاط ٣٨ عاماً، تعلم حجم الزيادة السكانية خلال هذه السنوات.. وبالتالى تعداد الأشراف تضخم.. الهدف الأساسى هو تسجيل هؤلاء الأشراف.. وأقوم بزيارات لمختلف المحافظات.. آخر زيارة كنت بصحبة شيخ الأزهر إلى العريش.. وذهبت إلى سوهاج ثلاث مرات وإلى قنا والإسماعيلية والسويس وأماكن أخرى عديدة، زرت فيها النقابات الفرعية، واجتمعت بالأشراف وتحدثت إليهم، فلابد أن أكون عاملاً مؤثراً فى المواجهة ولابد أن أستمع إليهم.. فى ساحة تضم نحو ثمانية آلاف جالسين إلى الأرض.. ومن آن لآخر أجمع النقابات الفرعية لنتحدث معا ونناقش شئون النقابة وتنظيمها وهناك مسائل كثيرة جداً بالغة الأهمية، على رأسها حاجة النقابة إلى مقر وحاجتها إلى مجلة، وتعديل القانون بما يتمشى مع مقتضيات العصر.. هذه أهم ثلاث نقاط رئيسية، أعمل على تحقيقها بشكل متوازن.. وإن شاء الله عندما نجنى مجهود ثلاث أو أربع سنوات، فمن الممكن انجازها خلال شهر أو شهر ونصف.. الأرض..... تعديل القانون... والمجلة بالتعاون مع د. أحمد عمر هاشم قد اتفقنا على إصدارها فى غرة رمضان القادم بإذن الله...

*** هل هناك نقابات للأشراف فى الدول العربية والإسلامية أو للنقابة المصرية فروع فى هذه الدول؟**

– ليس هناك نقابات، وإنما تجمعات للأشراف بالدول العربية والإسلامية.. فالجميع قد أحسوا بنقابة مصر.. أصبحت مسموعة بعد أن ظلت نحو أربعة عقود لا يسمع عنها أحد، أما الآن فالجميع وعلى كل المستويات قد عرفوا بأن هناك نقابة للأشراف..... وهذه علامة طيبة والناس سعداء بها.. خاصة الأشراف الذين أحسوا أن هذا حق وتكريم لهم... تجمعات أشراف البلاد العربية يريدون أن يحققوا نسبهم فى مصر، وأن ينضموا تحت لواء نقابة الأشراف فى مصر... وهذه مسألة أضعها فى عين الاعتبار فنحن هنا فى مصر، أكبر دولة عربية إسلامية تضم أشرافاً يلينا المغرب.. والجميع عندما عرفوا أن لأشراف مصر تنظيم رسمى، أتوا من فلسطين والأردن وسوريا وغيرها واجتمعنا وطلبوا بسط إشرافنا عليهم – وهذا يسبب لنا حرجاً – وأن نحقق لهم أنسابهم.

*** كيفية التحكيم بين الأشراف فى حالة وقوع خلاف أو نزاع؟**

– يحدث كثيراً خلافات بين الأشراف مثل أى تجمع، فعلى سبيل المثال، الاعتراض على صحة نسب شريف، وأنا أعلم أن الطرفين من الشرفاء، أتدخل بصفة شخصية ولا أنوب أحدا،

وبحكم موقعى يمكننى إنهاء أى خلاف....

*** هل للنقابة دور فى تحصيل مستحقات الأشراف فى الأوقاف وتوزيعها على من لهم الحق فى اقتسامها؟**

- تحصيل النقابة لحقوق الأشراف من الأوقاف.... عندما تطلع على الأمر العالى ستجد أن هذا حق لهم وهو موضوع قديم... وتشوبه معوقات كثيرة عند الرجوع إلى سجلات الأوقاف.... وقد لفت نظرى فى زيارة العريش، كيف أعوض الأشراف عن هذه الأوقاف وطرحت عدة اقتراحات.... فهناك قد وضع بعضهم ودائع للأنفاق منها على فرع النقابة... ففكرت لماذا لا يخطو القادرون من الأشراف خطوة عملية.. كأن تؤسس شركة كبيرة وتساهم برأس مال كبير وبشىء من الجهد يمكننا أن نجمع إسهامات أخرى ونؤسس شركات صغيرة منوعة.. فى العريش مثلاً نحصل على أراض زراعية بجوار ترعة السلام، يعمل بها أشراف العريش والعائد منها يحتجز ربعه والثلاثة أرباع يوزع على أصحاب الأسهم.. وفى الصعيد، سوهاج مثلا، هناك منطقة صناعية ضخمة، ومن الممكن تشغيل مشروعات حرة يعمل بها أبناء الأشراف وبنفس النسبة، وبهذه الطريقة يمكننا أن نعوِّض الأشراف عما فاتهم من أوقاف الأشراف... وأتمنى من الله التوفيق من أجل تحقيق هذه الأفكار

والمشروعات.

*** هل لنقيب الأشراف الحق فى التحكيم بين نواب الطرق؟**

– أنا أسيطر علَى طريقة واحدة – الرفاعية – وهى أكبر طريقة فى مصر وتعدادها لا يقل عن ٢ مليون، وليس هناك قرية فى مصر لا يوجد بها رفاعية، وأنا الذى أعيّن النواب ولى الحق فى عزلهم، فى حالة وقوع مخالفات جسيمة... وبالنسبة للنواب عموماً، فممكن عقد مجلس لتصفية أى خلاف أى إطار من الود والعلاقات الطيبة.

*** دور النقيب فى «الصراع حول حق القدم» عندما يدخل خليفة أو شيخ طريقة إلى منطقة ليس لطريقته فيها حق القدم؟**

– ليس هناك منطقة مقفولة على طريقة ما، والناس أحرار فى اختيار الطريقة، ولكل منها مكان أو أكثر لإقامة الذكر.... وربما كان يحدث قديماً مثل هذه النزاعات، أما الآن ومع التطور الفكرى إلى حد ما، لا يحدث مثل ذلك....

*** دور نقابة الأشراف فى تنظيم الاحتفالات بمولد النبى وموالد أهل البيت؟**

– نحن أكثر الناس الواجب عليهم الاحتفال بمولد النبى، وفى كل مرة نقيم احتفالاً رسمياً ضخماً فى ذكرى مولد النبى، يحضره شيخ الأزهر ود. أحمد عمر هاشم – رئيس جامعة الأزهر وعدد من الوزراء، إلى جانب مشيخة الطريقة الرفاعية..

وكذلك موالد أهل البيت نحرص على إحيائها بالتنسيق مع جميع الجهات المسئولة.. أما أولياء الله فلهم موالدهم التى تشارك فيها أيضاً كل الطرق ومشايخ الطرق يقومون بتنظيم هذه المسألة مع الجهات الرسمية كذلك.

*** الامتيازات الاجتماعية التى يتمتع بها السادة الأشراف وهل لا يتخذ حيالهم أى إجراء رسمى؟**

- هل تقصد أنهم فوق القانون؟! لا بالطبع، فليس هناك فرق بين شريف وغيره فالكل سواسية... الجميع خاضعون للقانون، ولا يميزهم سوى انتسابهم إلى الدوحة الشريفة.

*** ما هو واجب الأشراف تجاه مجتمعهم؟**

- عليهم مسئولية لاشك، فهؤلاء جدهم رسول الله ولهم فيه أسوة حسنة، ويجب أن يكونوا قدوة للناس جميعاً، وأى خطأ منهم عذابه عند الله شديد، ويجب أن يحاسبوا عليه بأكثر من الرجل العادى، فهى مسئولية ضخمة لابد أن يتحملها الجميع وأن يلتزموا الصراط المستقيم وأن يتحلوا بمكارم الأخلاق، وأن يوجهوا الناس إلى حقيقة الدين والمنهج القويم.

*** الشروط الواجب توافرها فى شيخ السجادة؟**

- مشيخة السجاده غالباً ما تكون بالوراثة، جيل يعقبه جيل، ويجب أن يكون ملتزماً بآداب الشرع، وعلى علم بالمنهج الصوفى، وقادراً على التوجيه السليم.

*** ما يؤثر عن الرفاعية من أعمال تثير الدهشة مثل السير على فحم مشتعل، وإدخال أسياخ حديدية في بعض أجزاء الجسم، والزعم بأن لهم تأثير خاص على الثعابين والعقارب؟**

– ويقال أكثر من هذا أيضاً، وذلك من الأمور التى أحاربها حرباً قوية لا هوادة فيها، وقد جمعت اليوم بمناسبة مولد الرفاعي، نواب الطريقة وتحدثت إليهم عن السلوك الصحيح الواجب اتباعه وعدم السماح بأى خروج عن الإلتزام بالسلوكيات الصوفية، لكن بالطبع لابد أن تحدث بعض التجاوزات التى نجابهها بشدة والتى لا أريد أن أراها بالمرة! وسيدى أحمد الرفاعي – رضى الله عنه – كان دائما يؤكد ويقول «طريقى – دين بلا بدعة – وهمة بلا كلل، وعمل بلا رياء، ونفس بلا شهوة»... ومن أقواله أيضاً... «لا يحصل صفاء الصدر حتى لا يبقى فى القلب شىء من الخبث لأحد من خلق الله، عند ذلك تأنس به الطيور فى أوكارها والوحوش فى غياضها» من هنا جاءت حكاية الثعابين وغيرها... ومن أقواله أيضا... «جمال القلب فى الخوف، وجمال العقل فى الفكر، وجمال الروح فى الشكر، وجمال اللسان فى الصمت، وجمال الوجه فى العبادة، وجمال النية بترك الخواطر، وجمال الفؤاد بترك الحسد، وجمال الحال بالاستقامة، وجمال الكلام فى الصدق، وجمال الطريقة فى موافقة الشرع» ثم أنه كان معروفاً عنه أنه عاطفى جداً وقلبه

رقيق فكان يحنو على المساكين واليتامى والأرامل وكان يقوم بخدمتهم ويحمل الماء إليهم ويقضى لهم حوائجهم، وكان لا يطيق أن يرى طفلاً يبكى فكان يقول إنه أضعف من أن يرى طفلا يبكى!

*** هناك أيضا حكاية مشهورة عن القطب الرفاعى، عندما حج ووقف على القبر الشريف فخرجت له يد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقبلها بحضرة الناس، ما مدى صحة هذه الواقعة؟**

- نعم قيل هذا، وكانت هذه أمنية سيدى الرفاعى، فخرجت له اليد الشريفة وقبلها.

*** وما هو تفسيركم لظاهرة حب المصريين لآل البيت، حتى أنهم أقاموا لهم أضرحة ومزارات لمن استقر منهم بمصر؟**

- عندما أتت السيدة زينب إلى مصر وأكرم شعبها وفادتها هى ومن معها، وكانت إقامتهم محل تقدير فطابت مستقراً لهم، وحتى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يوصى دائماً بمصر وأهلها، وبالفعل كانت مصر هى التى استضافتهم وحظوا بقدر كبير من التكريم والتبجيل ومنهم من طاف ببلاد عديدة ثم استوطن مصر... كالشاذلى.... والسيد البدوى الذى استقر بطنطا.... فقط سيدى الرفاعى هو الذى ولد بالعراق واستقر بها حتى وفاته، أى أن مصر اجتذبتهم إليها بقدر تطلعهم إلى ذلك... وحتى الآن - عندما نزور أضرحتهم نسعد

بهذه الزيارة بقدر سعادتنا بجوارهم.... فنحن نتبارك بمجرد لمس المقصورة، وهو الأمر المحرم تماماً بالمملكة السعودية... فمسألة حب آل البيت متأصلة ومتعمقة بداخلنا نحن المصريين، جيلاً بعد جيل... وهناك فى بعض البلاد لا تقام مساجد على أضرحة، فلا يصح وجود شخص مدفون داخل مسجد.... وقد تعودنا أن ندخل المقام بادئين بالسلام... ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت،،، إنهم يسعدوا بهذا ويباركونا أيضاً، فهذه هى طباعنا وأخلاقنا التى غرزت فينا، وهذه هى مشاعرنا المتوارثة إلى اليوم، فهناك من لقى ربه منذ أكثر من ألف عام، لكن فى مولده، لا تجد موضعاً لقدم... مولد السيد البدوى على سبيل المثال....... مولد سيدى الرفاعى..... محبين يأتون من أسوان والصعيد، من كل أنحاء مصر يفدون بكل الشوق حباً فى آل البيت.. فحب آل البيت شعور متوارث وطبيعى عند كل المصريين.

*** احتفاء المصريين بذكرى موالد أهل البيت، هو تعبير عن رؤيتهم للحياة، وتعبير عن معتقداتهم، هذه الاحتفالات يراها المتشددون نوعا من البدع التى ليست من الإسلام.... بينما يراها بعض المثقفين المتعالين على الواقع مظهرا من مظاهر التخلف؟**

- عندما نحتفى بذكرى موالد أهل البيت وأولياء الله الصالحين، ففى ذلك عبرة للمؤمنين وذكرى لعباد الله المخلصين

خاصة أن هؤلاء الأقطاب والأئمة ينتمون إلى رسول الله «ص» قد حفظ لهم تاريخ الإسلام جهادهم وجهودهم فى أشرف رسالة وهو الدعوة لدين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، إن أولياء الله وآل البيت هم نجوم الهدى التى تضئ للسالكين طريقهم، وهم الذين قدموا لنا نماذج مضيئة لعباد الله المتقين الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه.

فهؤلاء الناس الذين اصطفاهم الله وأكرمهم، نحتفى بهم حتى تقتدى الأجيال القادمة بسيرتهم وبأقوالهم وأفعالهم، فهى نماذج حية رائعة جديرة بأن نقتدى بها وأن نتمثل بها وأن نكون أكثر قرباً منهم.

*** ما هى الرسالة التى تريد أن توجهها إلى الشاب المسلم فى ظل موجة التطرف والارهاب التى تشهدها بعض المجتمعات الإسلامية والعالم كله؟**

– نحن فى عصر إرهاب وغدر وخيانة، وديننا دين سماحة وتراحم، وكما قلت هو دين الوسطية، فيجب أن يسود الحب بين كل الناس، وعلينا جميعاً الالتزام بمنهج الإسلام بالشكل الذى يحفظ العلاقات الاجتماعية والسلام الاجتماعى، فى إطار من حرية الفكر والعقيدة، حتى يمكننا مقاومة التيارات التى نجابهها اليوم.

اللائحة الداخلية

لأعمال نقابة الأشراف

المادة الأولى

الحكم فى صحة أنساب السادة الأشراف هو من اختصاص نقابة الأشراف العمومية بالديار المصرية دون غيرها من وكلائها.

المادة الثانية

يعين فى كل محافظة من المحافظات وفى كل مركز من مراكز المديريات قائم مقام للنقابة الشريفة العمومية ومن يتعين يشعر عنه نظارة الداخلية ولكل من الوكلاء مخاطبة النقابة العمومية مباشرة.

المادة الثالثة

ليس لأحد من قائمقامى النقابة (أى الوكلاء) تعيين أحد نائبا عنه فى جهات دائرته.

المادة الرابعة

يصير فتح دفاتر بباب النقابة العمومية مختومة بختم النقابة وتكون كالآتى:

دفتر صادر

دفتر وارد

دفتر لتسجيل عموم أنساب الأشراف بالديار المصرية

دفتر يسجل فيه أسماء المستحقين فى أوقاف الأشراف وهم المتوطنون بالقاهرة ومصر القديمة.

دفتر لضبط المستجدات والسواقط سنوياً

دفتر يرد فيه أسماء وكلاء النقابة العمومية

المادة الخامسة

يكون بطرف كل قائمقام دفاتر مختومة بختم النقابة العمومية وتكون كالآتى:

دفتر صادر

دفتر وارد

دفتر لقيد من يُثْبُت نسبه من الأشراف المقيمين فى دائرته

المادة السادسة

طريقة إثبات النسب الشريف تكون كالآتى:

يقدم الطالب عريضة يذكر فيها سلسلة نسبه ثم يبين فيها

الأدلة التى تثبت له ذلك وهى:

شهادة بشهرة وتواتر صحة انتسابه.

تصديق العدول المعروفين إن كان الطالب بالقاهرة وتصديق العمد وأعيان الجهة إن كان خارجاً عن القاهرة.

أوراق أو دروج أو صكوك أنساب قديمة تفيد صحة ذلك إن وجدت

تصديق نقباء الأشراف السالفين على أصول نسبه إن وجد ذلك أيضا.

وتقديم العريضة والمستندات يكون لباب النقابة العمومية لمن يكون فى القاهرة ولقائم مقام جهة الطالب لمن يكون خارجاً عن القاهرة وعلى قائم مقام النقابة فى الجهة أن ينظر فى الطلب والمستندات ويشافه الشهود حتى يثق من صحة أقوالهم وطابع أختامهم فإن تبين له عدم الصحة رفض الطلب وألغاه وإن تبين له صحة ما ورد فى العريضة والمستندات ورأى موافقة ما ذكر فيها من أسماء أهل البيت النبوى لما فى مشجرات الأنساب فحينئذ يكتب بما يفيد الوثوق بها ويرسلها مع المستندات لباب النقابة العمومية فإن رأى باب النقابة صحة النسب قرر ذلك فى قرار يبين فيه النسب المذكور مسلسلا ويذكر فى حيثياته الأدلة المثبتة ويسجل ذلك القرار فى سجل عموم الأنساب ويعطى

للطالب صورة منه موقعاً عليها بخط وختم سماحة نقيب الأشراف وترسل صورة أخرى لقائم مقام الجهة ليسجلها أيضاً عنده. ثم إن كل واحد من أبناء ذلك الطالب الذى ثبت نسبه إذا أراد إثبات نسبه فى المستقبل لا يحتاج إلا لاتصال نسبه لصاحب الأصل فقط وكل نسب لا يكون على هذه الحالة لا يعول عليه حتى تجرى فيه تلك الطرق الشرعية حفظاً لهذا النسب الشريف.

المادة السابعة

الأوراق التى تقدم من الطالب للنقابة العمومية أو إلى أحد وكلائها بصفة مستندات يصير تقديمها بحافظتين مطابقتين لبعضهما ممضاة كل منهما من المقدم لهما مبينا بكل حافظة عدد الأوراق وتواريخها ومضمون كل ورقة وبعد استلام كاتب الأشراف أو قائم مقام النقابة الأوراق المقدمة يمضى بالاستلام على إحدى الحافظتين ويعطيها لمن قدم الأوراق. والحافظة الأخرى تحفظ مع الأوراق وبعد انتهاء الحكم فى النسب يستبقى منها ما هو ضرورى حفظه بباب النقابة العمومية ويرد باقيها لصاحبها.

المادة الثامنة

لا يتأثر فى السجلات على من مات أو ولد لمن تسجل نسبه

بالأقاليم

المادة التاسعة

لا يصدق أحد من الوكلاء على شيء من الأنساب ولا يسجل أى نسب عنده مطلقاً إلا إذا صدر له أمر النقابة العمومية

المادة العاشرة

لا تؤخذ رسوم على إثبات الأنساب والتصديق عليها.

المادة الحادية عشر

وكلاء النقابة يقدمون دفاترهم عند طلب النقابة العمومية ذلك منهم بدون تأخير.

نص "أمر عالى"
بشأن لائحة نقابة الأشراف

بناء على التقرير المرفوع من اللجنة المشكلة لسن لائحة لنقابة الأشراف، وبناء على موافقة رأى مجلس النظار، أمرنا بما هو آت:

المادة الأولى: يناط نقيب الأشراف بإدارة شئون أوقاف الأشراف واستغلالها بحسب ما تقتضيه شروط الواقفين لها، وصرف ايراداتها فى وجوهها المعينة لها وحفظ أعيانها، وتعهدها بالإصلاح

بمقتضى التقرير الشرعى الذى يصدر باسمه.

المادة الثانية: تقرير النظر الشرعى ووقفيات أعيان أوقاف الأشراف، تسجل جميعها بالتفصيل فى دفتر مخصوص فى ديوان الأوقاف.

المادة الثالثة: يقدم نقيب الأشراف فى الشهرين الأولين من كل سنة لديوان الأوقاف حساباً تفصيلياً عن السنة التى قبلها، ببيان ما دخل فى عهدته من الايرادات، والمرتبات الموقوفة على الأشراف، وما صرفه منها على مستحقيه، وفى أوجه مصارفه الشرعية، والذى يتبقى طرفه من ذلك، يرسله مع الحساب والمستندات لديوان الأوقاف نقدية لحفظه بخزينته تحت اللزوم.

المادة الرابعة: على ديوان الأوقاف مراجعة الحساب المذكور وتحقيقه وتسجيله بالتفصيل.

المادة الخامسة: إذا تأخر تقديم حساب سنة زيادة عن شهرين، فيوقف ديوان الأوقاف صرف المرتبات التى لوظيفة النقابة بنظارة المالية، لحين تقديم الحساب، وإن ظهر طرف النقيب شىء، فيخصم من المرتبات المذكورة.

المادة السادسة: يناط ديوان الأوقاف بتتميم المباحث والتحريات التى تستدعى انتظام واستيفاء هذه الأعمال.

المادة السابعة: على ناظر الداخلية تنفيذ أمرنا هذا.

صدر بسراى رأس التين فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٣١٢/ ١٣ يونيه سنة ١٨٩٥.

الإدارة المركزية للطرق الصوفية

شيوخ السجادة:

اقتصر مصطلح «شيخ السجادة» فى البداية على أقطاب الأشراف من «العناية» المنتسبين إلى الخليفة عمر بن الخطاب، و«الخضرية» الذين ينتهى نسبهم إلى الزبير بن العوام.. ثم «الوفائية» الذين يؤصلون نسبهم إلى الإمام على بن أبى طالب. وقد تحول هؤلاء الأشراف إلى روابط صوفية، وتساوت مكانتهم بأسرة البكرى - سلالة الصديق أبى بكر - وبعض من شيوخ السجادة البكرية، تولوا منصب نقيب السادة الأشراف - وتمتعوا بنفوذ دينى واجتماعى قوى، وكان أشهرهم «محمد توفيق البكرى» التى تولى رئاسة النقابة ومشيخة الطرق الصوفية، وتعتمد شرعية تولى منصب «شيخ السجادة» على الاعتراف بصحة النسب الشريف.

وكان شيوخ السجادة هم المرجع فى إدارة الشئون المحلية - خاصة فى القرى - إلى جانب تنظيم وإدارة الطرق الصوفية،

ولهم حق التوجيه للنواب والمريدين وفض المنازعات، والإشراف على تنظيم الموالد، وكان شيوخ السجادة يدعون لحضور الاحتفال الرسمى لمولد النبى واحتفال نقابة السادة الأشراف..

وتجدر الإشارة إلى أن: محمد عبد الواحد الحريرى «شيخ السجادة الإمبابية» كان إماماً للخديو توفيق، ومن خلصائه المقربين.

الطرق الصوفية:

يذكر الجبرتى فى تاريخه، عدداً من مشايخ الطرق الأحمدية المختلفة أطلق عليهم لقب شيخ السجادة، وهذه الفصائل من الطرق، عرفت فى الأصل باسم «بيوت» تمتعت بنوع من الاستقلال الذاتى، وحقوق مكتسبة مارسها خلفاء السيد أحمد البدوى، فى طنطا، لمدة قرنين ونصف القرن عقب وفاته، وأصبحت سلطة رؤساء خمس من هذه البيوت - فى بداية القرن الخامس عشر - معترفاً بها رسمياً من «خليفة المقام» وكتبت حُجة بهذه الشأن صادق عليها عدد من الوجهاء، من «محاسيب» السيد البدوى.

هذا الإجراء الرسمى زاد من نفوذ البيوت الخمسة: «الكناسية» و«المنافية» و«المرزوقية» و«الامبابية» و«السلامية»..

وهى التى عُرِفَتْ فى مجموعها باسم: «البيت الكبير».. وبمرور السنين، اندمجت بها بعض الطرق الأخرى وهى: «الحلبية» و«الشناوية» و«السطوحية»، و«الحمودية» والتى عرفت فى مجموعها بـ «البيت الصغير»..

كذلك انضمت طرق أخرى، منها: المسلمية، البندارية، الشعبية، الزاهدية، والتسكيانية..

مع بداية القرن الثامن عشر، استحوذ شيخ «المرزوقية» سلطات مكنته من بسط نفوذه على جميع الأضرحة والطرق الأحمدية، وقد وضعت له حدود جغرافية لسلطته، لم يكن لها أن تلغى، مع التأكيدات المتكررة حول شرعية ممارساته!.. وتحددت له عضوية فعلية فى أكثر من طريقة بمبدأ الـ «قَدَم».. غير أنه لم تُسن حدود تنظم عضوية المريد فى الطريقة التى ليس لها قدم، فى المنطقة التى يعيش فيها، فالرابطة بين المريد والخليفة، لم تكن محدودة فى التنظيم الإدارى للطرق، فالخليفة الذى ليس لطريقته قدم فى منطقة مريده، لا يمكنه التدخل فى حالة وجود منازعات، أو يطلب له معاملة تفضيلية فى حالة احتجازه بدوائر الشرطة أو حين العرض على القضاء.

بالإضافة إلى ذلك، أن أعضاء الطريقة التى ليس لها قدم فى المنطقة، يحرم عليهم أى نشاط اجتماعى، إلا بإشراف ومراقبة

الخليفة الذى تتمتع طريقته بحق القدم، فى تلك المنطقة بالرغم من عدم إنتمائهم إلى هذه الطريقة!

إدارة الطرق والسلطات الحكومية:

كانت نقابة الأشراف تمد ولاة الحكم، بأسماء الخلفاء وشيوخ الطرق ونوابهم، القادرين على التعامل والسيطرة على جموع الألوف من الأتباع والمريدين، طبقاً للقواعد التى تنظم إدارة الطرق، بما يتلاءم مع البيروقراطية الحكومية، وضمان خضوعها لسيادة الحاكمين المطلقة!

وهذا أيضا، يمكن السلطات الحاكمة من السيطرة على تنظيم الاحتفالات الدينية والموالد، من خلال هؤلاء «الموظفين» وموضعهم من المسئولية تجاه تنظيم هذه الاحتفالات وسلوك المشاركين فيها من المريدين، وحفظ النظام فى الحضرات... مما جعل إدارة البكرى فى وضع متمايز لدى السلطة الحاكمة، فإشرافها على تلك الإجراءات التنظيمية، لم يكن فحسب تلبية لرغبة هذه السلطة، وإنما أدت دوراً أمنياً هاماً، من خلال «فصائل» الطرق التى يمكن للشيخ البكرى استدعاؤها لمجابهة أى خروج أو مخالفة للنظام!

لم يكن مسموحاً على الإطلاق بأى تعد على حقوق «القدم»

فالتسامح تجاه مخالفة واحدة أو محاول خرق النظام، كفيل بتعريض نواب الطرق وشيوخها إلى فقدان الثقة بهم، وبالتالى فقدانهم لحماية البكرى فى مناطق مصالحهم، وارتباط نقابة الأشراف أو الإدارة البكرية بمصالح السلطة الحاكمة يوجب التحرك سريعاً لمجابهة خطر الإخلال بحق القدم...! فذلك يعنى ضمناً - اغتصاباً - لنفوذ ومصالح مشتركة.. يفسر قانونياً بـ «تعريض السلام الاجتماعى للخطر»!

الصراع حول حق القدم وقراراته:

قد ينفجر الصراع على «القدم» على نطاق واسع، عندما يدخل خليفة ما إلى منطقة ليس لطريقته فيها حق قدم، سواء من أجل ضم مريدين جدد أو لإقامة حضرة أو للمشاركة فى الاحتفالات بأحد الموالد فى تلك المنطقة، مما يعد اعتداءً صارخاً، وقد تمضى عدة سنوات، قبل اتخاذ إجراء متشدد ضد الطريقة المعتدية، تكون قد تمكنت خلالها من اجتذاب مريدين جُدد، وعدم سرعة الفصل فى هذا الأمر، يكون غالباً نتيجة لتجاهل واتفاق السلطات المحلية!

والصراعات حول حق القدم، كان يمكن الفصل فيها بعرضها على القضاء ولكن يفضل حلها - عادة - من خلال مجلس يضم

نواب الطرق وبعض مشايخ وعُمَد المناطق أو النواحي التي شهدت هذه الصراعات، وتبدأ إجراءات التحكيم بسماع الشهود، وشهادة شيوخ الطرق التي تدعي حق القدم في تلك المنطقة، وقد يصدر نقيب الأشراف تعليماته إلى أحد نوابه باجراء التحقيق، وهؤلاء النواب لا يمكنهم فرض القدم بالقوة، وسلطتهم لا تتعدى إبداء الرأي والمشورة، فما أن يعترف بحق القدم، فإن شيخ الناحية والعمدة والمأمور، لهم وحدهم تنفيذ هذا الحق وحمايته.

وفي الواقع فإن الحفاظ على حق القدم، وسلطة نقابة الأشراف، يعتمد على التدخل الفعال لهؤلاء المسئولين، وإلزامهم بما يدعم النظام.

الأشراف ومسئولية الطريقة:

يحظى الخلفاء أو النواب المنحدرون من نسل شريف، بمنزلة رفيعة، فإذا ما خرقوا حق القدم لطريقة أخرى، لا يستطيع أحد أن يتخذ إجراءً رسمياً حيالهم، فثمة شعور سائد بأن مجرد التفكير في هذا الأمر، يتنافى تماماً مع ما يحظى به الأشراف من تبجيل وتقدير خاص، يمثل عاملاً مؤثراً في جذب المريدين من الطرق الأخرى،

وفى حالة الجدل حول حق القدم، التى يكون أحد الأشراف طرفاً فيها، فينبغى إبلاغ نقيب الأشراف، الذى يسعى إلى التحقق من صحة هذا الإدعاء، بسؤال النائب الذى حدث الخلاف فى منطقته، والذى بدوره يتحقق من الأمر، فإذا ما أقيم الدليل على صحة الادعاء، فإن نقيب الأشراف يصدر توجيهاته إلى المسئولين المحليين، لحماية مهام الأشراف أطراف النزاع..!

وهذا الدور المحدد الذى قام به الأشراف، فى جذب وهداية المريدين كان نتيجة مباشرة لمبدأ حق القدم، كقيمة محورية فى إدارة الأشراف والهيمنة على الطرق، مما أسهم فى تدعيم نفوذ نقباء الأقاليم، فى الهيمنة على الأضرحة وإدارة الموالد، خاصة بعد أن تقلدوا منصب «وكيل» فى تنظيم الإدارى للطرق الصوفية.

الخلافات التى لا علاقة لها بحق القدم:

إلى جانب الصراعات الدائرة حول حق القدم، فقد نشأت خلافات بين بعض الطرق التى تتمتع بهذا الحق بالتساوى، فيشتد التنافس فيما بينهما، وقد يصل الأمر بشيخ طريقة وأعضائها إلى إعاقة نشاط الطريقة المنافسة، كالمشاركة فى

المواكب والاحتفالات، وتتوالى الشكاوى إلى نقيب الأشراف والمسئولين المحليين، وبعد معرفة جوانب الموضوع وإجراء التحقيق، لابد من الوصول إلى تسوية مناسبة، يحرر بها محضر، ويُرسل إلى نقيب الأشراف، الذى يبلغ (مدير المديرية - حاكم الخط) المحافظ، حتى يتولى تنفيذ التسوية المتفق عليها.

أما مسألة موظفى الطرق الذين لا يباشرون أعمالهم، أو يتكاسلون عن أداء واجباتهم، فهى منوطة بقضاء شيوخ الطرق، وتتراوح العقوبة بين الطرد من الطريقة أو المنع المؤقت من المشاركة فى الاحتفالات بالمناسبات الدينية.

وبشكل عام، فإن نقيب الأشراف لا يتدخل فى الشئون الداخلية لكل طريقة، خاصة فى الخلافات التى قد تنشأ بين نواب الطريقة والمريدين، فالحكم لشيخ الطريقة أو الخليفة يفصل بينهم، أما إذا تصاعدت حدة الخلاف، فإن نقيب الأشراف يصدر تعليماته إلى أحد الوكلاء، الذى يرتب لجلسة استماع بمقر الطريقة الرئيسى، يتم فيها تسوية هذا الخلاف.

تنظيم الموالد:

كانت الصلة الوثيقة بين نقابة الأشراف والسلطات الحاكمة، تستوجب انتشار المكاتب الإدارية للطرق الصوفية، التى يبرز

نشاطها فى المناسبات الاجتماعية المختلفة، فإذا أهمل أحد الموظفين فى أداء واجباته، كان على المسئولين الحكوميين تعيين غيره، وكان خلو منصب «الخليفة» يحجم أنشطة المريدين إلى حد كبير، لذا فمن صالحهم أن يسارعوا إلى تقديم طلب عاجل لتعيين خليفة جديد، يكون شيخاً عليهم.

غير أن الأعمال الروتينية الأسبوعية، لا تتأثر كثيراً بخلو منصب الخليفة فالحضرات الأسبوعية - على سبيل المثال - لم يكن بالضرورة أن يشارك فيها الخليفة، ولا يشترط أن تتم فى المسجد أو فى الخلاء، بل تقام غالباً فى بيت أحد المريدين الميسورين، ولكن وجود الخليفة يرتبط بإبراز أنشطة الطريقة وهى إحياء الموالد.

ومسئولية إحياء الموال، تأتى على رأس مهام الخليفة، وما تتضمنه تلك الاحتفالات من مواكب المريدين حاملى الأعلام والبيارق، وإقامة حلقات الذكر، والتى تعقد غالباً فى خيام أو سرادقات أعدت لهذا الغرض، قريباً من ضريح الولى صاحب المولد، وخدمات تقديم الأطعمة والأشربة للحاضرين مجاناً..

وإحياء الموالد، هى مناسبات هامة تعلن فيها الطريقة عن نفسها وتقدمها إلى المجتمع، فتجتذب أعضاءً جدداً، وهذا النشاط الجماعى لأبناء الطريقة، خلال الموالد، هو شكل من

أشكال تحقيق الذات، خاصة إذا حظيت الطريقة برضاء نقيب الأشراف.

وتنظيم الموالد يعتمد أساساً على شيخ الضريح، الذى قد يكون هو الخليفة نفسه، وفى هذه الحال، يتولى الإشراف على ضريح الولى، ويرأس احتفالات المولد، وواقع الأمر أن هذا يشكل جزءاً من حق القدم...!

وحق الخليفة فى القدم بهذه الناحية أو البلدة، يعطى الأولوية لأبناء طريقته، فى تنظيم مولد ذلك الولى.

وقد تظهر بعض المنازعات الخاصة بحق رئاسة وتنظيم المولد، عندما يتعلق الأمر بريع الأوقاف، وهبات وذبائح وأموال يرصدها المحاسيب للإنفاق على المولد...! وهذه المنازعات يتم التعامل معها بنفس الأسلوب المتبع فى تسوية مشاكل حق القدم.

ومن الجائز للخليفة الذى يتمتع بحق رئاسة احتفالات المولد، أن يتنازل عن هذا الحق لشيخ طريقة أخرى، بشرط إبلاغ الحكومة وبعض كبار الشخصيات، لاتخاذ قرار بهذا الشأن.

وعلى الخليفة أو شيخ الطريقة الذى سيترأس الاحتفالات بالمولد، أن يحصل على إذن نقيب الأشراف قبل الموعد بوقت كافٍ، وبعد أن تدرس أحقيته فى الإذن، يقوم نقيب الأشراف

بابلاغ المحافظ بموافقته، طالباً منه التصريح بإقامة المولد، وتصريح المحافظ هو فى النهاية من الأمور الشكلية!

والموالد تجتذب عادة جموعاً غفيرة من الناس، وكان معظمهم من العاطلين عن العمل، فينتقلوا من مولدلآخر، ولذا ففى مواسم الزراعة والحصاد، وأعمال السخرة وانتشار الأوبئة، كان يحظر التصريح بإقامة المولد.

ويقوم نقيب الأشراف ومشايخ الطرق، بالتنسيق مع المحافظات بحيث لا تتزامن بعض الموالد، ومن المتبع أن يسهم ديوان المحافظة فى تكاليف المولد.

أشهر الموالد فى مصر، هو مولد السيد أحمد البدوى بمدينة طنطا التى اتربطت شهرته بهذا القطب، ويجتذب مولده أكثر من مليون مواطن، من مختلف أرجاء مصر، فنشأت مشكلة أمنية، استوجبت إرسال تعزيزات من قوات الشرطة، كل عام، حتى يمكن السيطرة على حالة الأمن وحفظ النظام، وكان نقيب الأشراف يحرص على حضور احتفالات مولد السيد البدوى، ويرأس مجلساً لفض النزاعات، ويفحص سجلات الأوقاف وطريقة إدارتها، تحت إشراف نائبه أو وكيله بطنطا، ثم يتلقى النسبة المخصصة له من أموال صندوق النذور الأحمدى!..

ويقول على مبارك: «ومن العوائد البكرية، أن السيد البكرى

يتوجه كل عام إلى طنطا لإحياء ليالى المولدين الصغير والكبير بمنزله، وتضرب هناك خيام أرباب الطرق وإذ ذاك يفصل قضاياهم» ومن العوائد البكرية أيضاً: الإذن لمشايخ الطرق والأضرحة بمصر بعمل موالدهم المعتادة، ويكاتب الحكومة بملاحظة الضبط والربط أثناء تلك الموالد... و«عمل موائد فاخرة ليالى خمس وعشرين من رمضان، وعاشر المحرم، ومقارئ سيدنا الحسين، وسابع عشر ذى القعدة، ويوم جمع المولد النبوى الشريف، ومولد الإمام الشافعى، ومولد عبد القادر الدشطوطى «والذى يحتفل السادة البكرية به طوال ثمانية ليال من شهر رجب تنتهى بليلة الإسراء والمعراج، حيث تبخر القبة» وتوقد بها الشموع، ويقرأ فيها حزب البكرى، ثم يسقى جميع الحاضرين شرابا حلوا، ويرش عليهم ماء الورد ويركب السيد البكرى فى موكب بهى...»

الأضرحة:

يتولى رعاية أضرحة ومساجد أهل البيت وأولياء الله، ما يعرف بـ «السدنة» أو خدام الضريح، هؤلاء لهم الحق فى نسبه من عائد صندوق النذور، ومن ريع الأوقاف، ويخضعون لنفوذ نقيب الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية، وكان نقيب الأشراف

يتمتع بتعيين سدنة الأضرحة، التى تنتشر بمصر فى كل قرية تقريباً، ويشترط فى سادن الضريح، أن يكون على صلة قربى بالولى الذى سيشرف على ضريحه، أو ينتمى إلى عائلة توارثت الإشراف على هذا الضريح.

ويكتسب السادن شرعية إشرافه على الضريح، بعد فحص طلبه بدقة من الجهات الرسمية، وإجراء التحريات اللازمة عن سلوكياته وتقواه، وشهادة بعض سكان البلدة أو المنطقة بصلاحيته - أو العكس - لتولى هذا المنصب الدينى، أما إذا تم تعيين شخص ما - دون اتخاذ هذه الترتيبات السابقة - فمن حق أهل المنطقة أو القرية أو الناحية، الاعتراض وتقديم التماس بتعيين شخص آخر، ولنواب نقيب الأشراف والقاضى والمحافظ، التدخل لحل المشاكل الإدارية التى قد تطرأ أثناء عمله، ويمنح من عائد النذور والهبات، وعقب صدور قرار تعيينه رسمياً، يبلغ المحافظ ومديرية الأوقاف.

اللائحة الداخلية للطرق الصوفية

لعام ١٩٠٥

الفصل الأول:

مادة ١

يجتمع المجلس فى المقر الرئيسى لمشيخة المشايخ الصوفية فى كل أول سبت من كل شهر عربى فيما عدا العطلات والأعياد وتُعْقد جلسات أخرى فى الحالات الضرورية.

مادة ٢

تحفظ الدفاتر التالية بالمشيخة العامة:

– السجلات التى يسجل فيها ما يُحال إلى المشيخة من أمور وقضايا خلال العام على التوالى، يوضع لكل قضية رقم ويكون كل رقم مرجعاً لكل قضية، كما يتم وضع تاريخ واضح لتسجيلها فى الدفتر، وكذلك اسم ولقب المدعى والمتهم، وموضوع القضية وتاريخ انعقاد الجلسة المحدد لسماع القضية وملخص المحاكمة والقرارات المتعلقة بها.

- دفتر تُحْفظ به نسخ الرسائل الصادرة.
- دفتر تحفظ به نسخ الرسائل الواردة.
- دفتر يسجل به كل مشايخ الطرق والأضرحة والتكايا والزوايا وما شابه ذلك.

مادة ٣

يفتح محضر رسمى لكل قضية فى ملف مستقل يسجل فيه كل ما يظهر فى نطاق العملية القانونية مع ذكر واضح لتاريخ كل جلسة واسم رئيسها وأعضائها الحاضرين الذين تلتئم الجلسة بهم، وعدد القضايا، وأسماء الأطراف المعنية، تأكيد وجود الحاضرين وإثبات غياب الأعضاء الغائبين، وكذا إثبات التقارير والطلبات المقدمة من الأطراف المعنية وعدد الوثائق المقدمة وشهادات الشهود، والقرارات الصادرة عن المؤتمرين إما بإرجاء بحث الإجراءات القانونية لجلسة أخرى أو إصدار الحكم فيها، ومع قرار التأجيل ينبغى تسجيل الأسباب وتوضيحها إما أن التأجيل الخاص بالجلسة كان بسبب الحاجة لاستكمال التحقيق وتجميع معلومات أخرى متعلقة بالقضية أو أنه بسبب طلب أحد الأطراف ولأسباب معقولة يتبعها ذكر واضح لتاريخ الجلسة التى أجلت إليها الإجراءات القانونية.

مادة ٤

يقع على كاتب «باب المشيخة» مسئولية إعطاء رقم القضية للمدعى إذا قام هو برفع القضية فى قسيمة (بمعنى إذا لم ترفع بواسطة عضو من أعضاء المجلس أو رئيسه) ويسجل فى القسيمة تاريخ الجلسة المذكورة وعلاوة على ذلك يسجل أسماء شخصيات الطرف المعارض أو المنازع.

مادة ٥

أما الأوراق التى يقدمها الطرف المنازع «لباب المشيخة الصوفية» كدليل قانونى يجب أن يُقَدَّم معها ملفان من نفس النوع على كل واحد من الاثنين توقيع الشخص الذى يقدمه. كما يجب أن يكون واضحاً على كل ملف عدد الوثائق التى يحتويها، وتواريخها، وتسجيل مستقل لكل وثيقة، وبعد قبولها بواسطة «باب المشيخة» بالوثائق المقدمة إليها يوقع على واحد من الملفين بالاستلام ويعطى للشخص الذى قدم الأوراق ويحفظ الملف الآخر مع الأوراق التى بداخله والتى تخص القضية فى «دوسيه» مخصص لها.

مادة ٦

تجرى المشاورات بين أعضاء المجلس بعد أن تتم إجراءات الدفاع وذلك دون حضور أى من الطرفين المتخاصمين.

إذا حضر المدعى متأخراً إلى الجلسة تنحى قضيته جانباً، ويمكنه فتح المداولة بشأنها مؤخراً، وإذا أتى المدعى عليه متأخراً لأول مرة تؤجل القضية، وإذا أتى متأخراً لثانى مرة يعين نائباً عنه ويحاكم فى حضور النائب، وعلى سكرتارية الجلسة إعلام المدعى عليه بنتيجة المحاكمة، وله الحق فى الاعتراض عليها قبل انقضاء خمسة عشر يوماً تبدأ من لحظة إعلانها.

مادة ٨

على المشيخة العامة أن تدعو أعضاء المجلس للجلسة كتابة قبل انعقادها بثلاثة أيام، وعلى من لديه عذر يمنعه من الحضور فعلياً، عليه أن يخبر المشيخة بعذره قبل ٢٤ ساعة من انعقاد الجلسة.

مادة ٩

إذا ما أصدر المجلس الصوفى حكماً فى قضية فلا ينظر فيها ولا تستأنف.

الفصل الثانى:

ما يتعلق بمشيخة الطرق:

مادة ١

لا يصرح بتعيين شخص ما بصفة «شيخ طريقة» إذا لم يكن هذا الشخص ذا علم ومعرفة وكمال فى شخصيته.

مادة ٢

لا يعين شيخ واحد لطريقتين.

مادة ٣

يعتبر مشايخ الطرق مستقلون عن بعضهم لكل طريقته، ولا يخضع أحدهم للآخر ولا يكون لطريقة واحدة شيخان.

مادة ٤

تقوم التنظيمات الرسمية والقرارات الخديوية الصادرة فى يوم ٣ يوليو سنة ١٩٠٣ بحصر مهمة تعيين كل مشايخ الطرق فى مصر مهما كانت طبيعتهم فى المجلس الصوفى وتقتصر عليه، ولا يحق لأى مؤسسة أخرى تعيين أى أحد منهم يتم عزله، ومن الآن فصاعداً لن يتم تعيين ولن يتم الاعتراف بشيخ إذا لم يعينه المجلس بغض النظر عما إذا كان الشخص من مشايخ السجاجيد أو من مشايخ الطرق الخلوتيه أو ما شابه ذلك.

مادة ٥

يمكن إضافة طرق جديدة ويعترف بها رسمياً عندما لا تتشابه «الطريقة» الجديدة من حيث اسمها أو مصطلحاتها الفنية مع إحدى الطرق الموجودة فعلاً والمُعْتَرف بها.

مادة ٦

عندما تصبح الطريقة بدون شيخ (يخلو المنصب بموت الشيخ) يحل محله ابنه الأكبر ويخلفه فى منصبه، ويخلف الابن الأكبر إبنه الأكبر فى حالة موته وهكذا، بشرط أن يكون من ذوى المعرفة وله موهبة تؤهله للتعيين، فإذا لم تكن هذه حالته فإن من يستكمل تلك الاشتراطات من بين إخوته أو من بين أقربائه يعين فوراً، فإذا لم يستكمل أحدهم هذه الاشتراطات فإن المجلس الصوفى يعين شخصاً مناسباً فى المنصب الشاغر، أما إذا كان الشيخ الراحل قد ترك ابناً قاصراً فإنه يعين فى المشيخة ويعين له وصى مفوض يقوم بمهامه حتى موعد بلوغه السن القانونية.

مادة ٧

على كل شيخ طريقة أن يحوز أربعة سجلات (دفاتر) حددتها المشيخة العامة كالتالى:

- دفتر لنسخ المراسلات الصادرة.

– دفتر للمراسلات الواردة.

– دفتر به قائمة لكل نواب وخلفاء الطريقة.

– تواريخ تقليدهم المناصب.

– دفتر تسجل به الأحكام التى يقضى بها الشيخ فى المنازعات التى تجرى بين أعضاء الطريقة.

وعندما تصبح الطريقة بغير شيخ (بموته) تسلم هذه السجلات إلى باب المشيخة وبالتالى فإنه بعد أن يعين شيخ جديد تدفع إليه الدفاتر.

مادة ٨

يحظر بتاتاً أن يجعل أحد الأشخاص برتبة خليفة وهو حينئذ ليس على دراية ومعرفة متخصصة.

مادة ٩

على كل شيخ طريقة أن يعين خليفة فى المدن المختلفة والقرى من بين أولئك الذين هم على علم بقيادة الناس ويعين نائب فى كل «مركز» يكون له فيه مريدون كثيرون.

مادة ١٠

على كل شيخ طريقة أن يقوم بجولات خلال العام وأن يفتش على أعمالهم وعن كيفية أدائهم للإرشاد الذى عهد به إليهم.

مادة ١١

ينبغى ألا ينعت نواب الطرق فى المناطق الريفية والنواحى

بلقب «شيخ الطريقة» فيها ولكن يلقبون بلقب «نائب» تنفيذى.

مادة ١٢

لا يُصدر الشيخ «إجازة» لأحد إلا إذا وجده كفئاً وينبغى طبع الإجازات وأن تحوى معانى مضبوطة بالإذن القواعد التى طبقاً لها يقوم الخليفة باعطاء إرشاداته بدون تدخلات ولا يجوز للشيخ أن يعطى خليفته إجازات دون أن تكون عليها أسماء محددة حتى لا يوزعها لأى أحد يرغب فيه.

مادة ١٣

لا يجوز لشيخ الطريقة أن يكلف مريديه بالتزامات مادية سنوية معتادة سواء على المريدين أو الخلفاء، ولكن يمكن له ولخلفائه أن يقبلوا ما يقدم إليهم كهبات تُعْطَى بنفس راضية من الواهب بشرط ألا تكون بذلك علاقة بإحدى القضايا المعروضة عليهم أو بأمر يتعلق بتعيين أحد الخلفاء بالنظر إلى أنه لا توجد رسوم تدفع فى مثل تلك الأمور.

الفصل الثالث

وكلاء المشيخة

مادة ١

لكل إدارى بالمحافظات وكيل مشيخة يعين من أفاضل وجهاء هذا المركز ولا يكون لقبه الذى ينادى به شيخ مشايخ الطرق فى المنطقة التى يسكن بها ولكنه ينادى بلقب «وكيل» المشيخة المُنفِذ وسوف يكون على اتصال مباشر مع باب المشيخة وينبغى إخطار المديرية التى يتبعها المركز الذى يسكن به كما ينبغى نشر ذلك التعيين فى عدد من الجرائد اليومية

مادة ٢

لا يعين من يكون نائباً لطريقة «وكيلا للمشيخة» مادام يحتفظ بمنصب النائب وتقليده لمنصب وكالة المشيخة مسموح به إذا تخلى عن منصب النائب.

مادة ٣

على وكلاء المشيخة أن يحتفظوا بسجلات الأحداث التى تتعلق بالصوفية وللوكلاء عندما تكون هناك حاجة ماسة الحق فى تعليق المنصب مؤقتاً حتى يتم بإحالة القضية إلى الجهة

المناسبة لهذا الإقرار (تظهر الوكالات المناسبة فى مادة ١٣ من المرسوم الخديوى لائحة ٢ يونيو ١٩٠٣).

مادة ٤

ينبغى على وكلاء المشيخة أن يرسلوا الأحكام التى يصدروها فوراً واحداً بعد الآخر حتى يتمكن المجلس الصوفى من الاطلاع عليها، أما الأحكام التى قُدِّم بصددها إلتماس فإن المجلس يحكم فيها بما يراه مناسباً، فإذا كانت المدة التى يسمح خلالها بالإلتماس «ضد الحكم العائد» قد انقضت وأصبح الحكم سارياً يكتب المجلس إلى الإدارة بتنفيذه إذا كانت القضية تتطلب ذلك، وتبلغ المدة المسموح بها لإجراء الاستئناف ثلاثين يوماً تبدأ من يوم إعلان الحكم إذا كان الطرف المعنى حاضراً، أما إذا كان الطرف المعنى غائباً يُمهَل ثلاثين يوماً من اليوم الذى تنتهى فيه المدة التى فى خلالها يكون الاعتراض مُمْكناً.

مادة ٥

على كل وكيل مشيخة أن يكون لديه سجلات كما فصل سابقاً فى المادة الثانية من الفصل الأول لإنجاز ما يهمهم فى المركز التابعين له.

مادة ٦

على وكلاء المشيخة إعلام المشيخة العامة عن كل ضريح أو

زاوية فى منطقتهم يصبح فيها المنصب شاغراً لكى يعين فيه شخص آخر.

مادة ٧

إذا صدر عن الوكيل أن إنحراف أو مخالفة للحقيقة وأصبحت الانحرافات بادية للعيان تصم أحد وكلاء المشيخة فإنه يفصل من منصبه.

مادة ٨

لا يرد وكلاء المشيخة الحكم فى القضايا التى تتعلق بالأضرحة فهذا يعد من اختصاص المجلس الصوفى.

الفصل الرابع

فيما يتعلق بالأضرحة

مادة ١

تقوم المشيخة – فيما يخص كل ضريح يتبع سلطة المشيخة الصوفية، بتعيين خادم أو شيخ خدمة وخدم طبقاً لما تكون عليه حالة الضريح ومتطلباته ولا يتم تعيين عدد أكبر مما تتطلبه سدانة الضريح.

مادة ٢

من كان مسئولا عن ضريح لمدة خمس سنوات فإن له الأولوية على الآخرين لتولى المنصب حتى ولو لم يكن من سلالة الولى المدفون بالضريح، وإذا لم تكتمل فيه تلك الشروط فإن لسلالة الولى الأولية على الآخرين، ولا يتم تعيين شخص حتى تستكمل عنه إجراءات بحث واستقصاء كافية للتأكد من أن هذه الاشتراطات قد استكملت.

مادة ٣

تجمع النذور بواسطة شيخ الخدمة مع إبلاغ الخدمة (وهم الخدم والموظفون الذين لهم حق فيها) ثم تقسم تدريجياً وترمى ويفرج بين كل كومة ويتم حصرها فى نهاية كل شهر، وتقسم فى أنصبة متساوية، وتخصص حصة من هذه الحصص للصرف على الاحتفالات فى الأعياد الدينية التى تقام بالضريح ويوزع الجزء الباقى على شيخ الخدمة والخدم طبقاً لما تم بيانه فى مراسم التعيين.

الفصل الخامس

فيما يتعلق بالشئون العامة

مادة ١

ليس للتصوف هدف إلا الحصول على المعرفة بالقانون وتطبيقه.

مادة ٢

يُطرَد من الطرق الصوفية كل من:

أولاً: كل من يعرف باعتقاده بعقيدة مخالفة للشرع الإسلامى مثل نظرية الحلول والاتحاد والتحلل من الفرائض الدينية لأناس معينين أو ما شابه ذلك من عقائد.

ثانياً: كل من عرف عنه أفعال مضادة ومناقضة للأعمال والسلوك المطابق للشريعة مثل ضرب إنسان بسلاح أو أكل الحشرات وما شابه، الذكر مع الرقص وإلقاء الشخص بنفسه على الأرض، وعدم استكمال كل حروفه، والغناء بأغان غير أخلاقية، وإقامة الزار بالأضرحة والأعمال المشابهة.

مادة ٣

ينبغى أن يكون الذكر الصوفى: تفكر فى الله وجلاله والنطق بذلك صراحة ووضوحاً واقفين أو جالسين بخشوع وكرامة وفى حضور الخلفاء الذين لديهم إجازة من مشايخهم،

تحظر كافة المواكب نهاراً، عدا التى يُصَرَّح بها باب المشيخة وينبه أنه فى المواكب لا ينبغى لأحد أن يمتطى الخيل إلا مشايخ الطرق أو نوابهم ومن الضرورى أن لا يصاحب المواكب أى شىء يخالف السلوك القانونى، ويكون ترتيب الطرق

مادة ٤

يجب على كل شيخ طريقة وعلى كل خليفة أن يحضرا معاً مع المريدين فى ليلة أو أكثر من كل أسبوع إلى زاوية أو مكان خاص لذكر الله تعالى وتسبيحه، وعلاوة على ذلك يتم إعطاء التعليمات والإرشاد بعد ذلك ويسمح للشيخ أو الخليفة أن يعين واعظاً للحلقة شيئاً عن العقيدة والسلوك القويم ليرشدهم إلى الصراط المستقيم.

مادة ٥

يلغى مبدأ «الأقدام» المتعارف عليه فى الطرق فى المناطق الريفية.

مادة ٦

يمكن لكل شخص بإقامة مولد وتنظيمه إذا ثبت قيامه بفعل ذلك لمدة لا تقل عن خمس سنوات، ومن الأمور الأساسية أنه لا ينبغى أن يقوم بجوار المولد أو موقعه الملاصق أي شيء يناقض السلوك القانونى مثل الألعاب والملاهى وما شابه.

مادة ٧

تحظر كافة المواكب نهاراً، عدا التى يُصَرَّح بها باب المشيخة وينبه أنه فى المواكب لا ينبغى لأحد أن يمتطى الخيل إلا مشايخ الطرق أو نوابهم ومن الضرورى أن لا يصاحب المواكب أى شيء يخالف السلوك القانونى، ويكون ترتيب الطرق

إذا أتت معاً فى أى موكب كالتالى:

١- المرازقة الأحمدية

٢- الكناسية الأحمدية

٣- المنايفة الأحمدية

٤- السلامية الأحمدية

٥ - الإمبابية الأحمدية

٦- الحلبية الأحمدية

٧- التسكيانية الأحمدية

٨ - الشعيبية الأحمدية

كرامات الأولياء.. الفقراء

إذا كان بعض كبار الأولياء قد ظفروا بالقطبانية كالرفاعى والدسوقى والبدوى والشاذلى والقنائى وأبو الحجاج.. ممن دانت لهم الرقاب، وأخذوا العهود على العالم.. وتوطد سلطانهم فى مشارق الأرض ومغاربها!.. ومنهم مَنْ أبى القطبانية عندما عُرِضَتْ عليه كالشيخ مصطفى البكرى، الذى أذعن له أولياءُ عصره، يأتى فى ذيل التركيبة الاجتماعية لنظام «الولاية» عدد من الأولياء الأميون، أو ذوى تعليم محدود، يحظون باعتقاد العامة فى حياتهم، بأنهم قريبون من الله، بما يجريه على أيديهم من معجزات وكرامات، أو من خلال سلوكياتهم غريبة الأطوار، واتصال أتباعهم بهم اتصالاً مُفْعَماً بالود والعاطفة، ويتمتعون بالثقة والخوف منهم لقوتهم الخارقة، وأشهر هؤلاء «الأولياء» الفقراء «أبو القمصان» وقد مات فى القرنة عام ١٩٨٤ ومنذ ذلك الحين يقام مولد حول مقامه كل عام، وهو مولد كبير، وكان الشيخ أحمد الطيب نفسه قد أنكر «ولاية» الشيخ «أبو القمصان» كما انكرها ابنه الشيخ محمد «ابن الشيخ الطيب»

وهو الآن شيخ مُعَمَّر ولكنه لازال على قيد الحياة، وعلى أية حال فإن الشيخ الطيب يلعب دوراً هاماً فى إحدى القصص عن معجزات الشيخ «أبو القمصان» ففى بعض الأحيان يكون الشخص الذى يُرفض معروفاً ثم يعاقب، أو يؤخر عن منزلته كنتيجة لفعله.

فعلى سبيل المثال لم يشأ الشيخ «الطيب» أن يفسح فى سيارته «لأبى القمصان» الذى أراد منه أن يوصله إلى مكان معين، وعندما وصل هذا المكان وجد «أبا القمصان» قد وصل بالفعل!! تماما كما فعل «أبو القمصان» عندما عبر نهر النيل راكباً منديله عندما رفض المراكبية توصيله على قاربهم لأنه كان قذراً ويثير القرف والغثيان لدى السياح الذين كانوا على القارب، وقيل إنه كان لا يخشى التصريح بما يجول فى خاطره مادام لا يخرج عن حدود الأدب والأخلاق، كما فعل مع الملك «فاروق» حيث قال له أنه ينبغى عليه أن يزوج أمه وأخته حتى يحفظهما من الوقوع فى الفواحش!!

وكانت عادة الشيخ «الطيب» أن يحج كل عام (حيث أنه كان موفور المال) أما الشيخ «أبو القمصان» الذى كان فقيراً فقد كان يلقاه هناك حيث أنه كان يسافر بمعجزاته، ففى صباح أحد الأيام طلب الشيخ «أبو القمصان» من زوجته بعض الخبز

ليعطيها للشيخ الطيب – الذى كان فى ذلك الوقت موجوداً فى مكة بالفعل – وبعد وقت قصير قام الشيخ «أبو القمصان» بتسليم الخبز إليه ساخناً وطازجاً، ويروى أنه تجادل الشيخ «أبو القمصان» مع أحد أبناء الشيخ «الطيب» فقذف برغيف من الخبز فى الهواء فسقط الرغيف أمام الشيخ «الطيب» وأخذالرغيف يحكى للشيخ الطيب كل تفاصيل ذلك الجدل!.. وعندما رجع الولد إلى البيت أمره أبوه بأن ينتهى عن مجادلة «أبى القمصان»!..

أما فيما يتعلق بأصل «ولاية» أبى القمصان فهناك قصة تحكيها ابنته «أم يوسف» روتها كالتالى: «يكون النيل هادئاً ساكناً تماماً لمدة دقيقة واحدة كل عام، نعم إنه ينام وفجأة يبدأ فى جريانه كالمعتاد! ومن يشرب من النهر حال سكونه يصبح «وليا» وكان لأبى القمصان أخ قام ببناء كوخ قرب النيل ليراقبه ويظفر به وهو نائم لكن خاب مسعاه لعدة سنوات، وذات مرة حضر أبو القمصان لرؤية أخيه، وأراد أخوه أن يحضر بعض الماء من النهار، ولكن أبا القمصان ذهب بنفسه ثم رجع وهو يقول «لقد رأيت أمراً عجباً عندما أخذت الماء من النهر، لم يتحرك النهر أبداً وبمجرد أن انتهيت (من الشرب)... عادت الأمواج ترقص!».

وقضى أبو القمصان عمراً طويلاً يتجول فى أنحاء مصر لكنه كان يعرف أنه لن يموت إلا فى مَسْقَط رأسه «القرنة» وأن أهله سيجدون مدداً طيباً بعد موته، وقد رأت حفيدته فى حلم أضواء ورايات ودفوفاً وكعكاً وسكر ورأت أبا القمصان يشع نورا من جسده وكل هذا كان على طول الطريق الذى يُقام فيه المولد كل عام حول «مقامه» لأن أبا القمصان اختفى من نعشه أثناء تشييع جنازته!.. فقد وضعته أسرته فى النعش حينما كان جثمانه فى البيت ولكن النعش كان خفيفاً جداً (هذا ما قيل كثيرا عن الأولياء أن النعش يطير فوق أكتاف حامليه وغالباً ما يشق طريقه ويولي وجهته بنفسه) وعندما هبت الريح ونزع غطاء النعش ظهر أن ما تحت الغطاء كان خالياً من جثمان الشيخ!!!.

أما حلم أبو القمصان لأهله بأن يأتيهم المدد من بعد موته فقد صار حقيقة واقعة... فهدايا الزوار للمقام لا تنقطع وهى وافرة وأهله يتلقونها بالترحاب، ويركب أبناؤه الدراجات البخارية بينما توزع إحدى بناته «البركة» حيث تمسك رأس أحّد الزوار وتحدث ضجيجاً وهمهمة عالية، وهم يرغبون فى بناء «ساحة» إبتغاء مرضاة الشيخ!

ولعل حالة الشيخ الشهير «موسى» أغرب من قصة «أبو القمصان»، فقد مات الشيخ موسى بالكرنك فى مايو ١٩٨٨

وعمره تجاوز السبعين عاما، وقد عاش فى غرفة بدون نوافذ إلا من باب يُفْضى إلى ممر أو طرقة فى «ساحته» المتواضعة التى عرفت بالساحة الموسومية التى لم يبرحها لمدة عشرين عاماً متصلة، وقبلها عشرون عاماً أيضاً قضاها بنفس الطريقة فى منزل من الطوب اللبن بنفس الشارع، وقد بُنِى له فى حياته، أمام ساحته ضريحٌ تعلوه قبة ليستقبل جثمانه عقب وفاته!

وكان الشيخ موسى يستقبل زواره صباح اليوم وضحاه وفى الليل المتأخر، وقد كانوا ينتظرون رؤياه جالسين على الأرض فى الردهة الضيقة آملين فى شفاء أو راجين فى نصيحة أو ربما يكتفون فقط بتلقى «البركة» وكان يقف على بابه إبن اخته وهو شاب فى الثلاثينات من عمره، وكان ينظم دخول الزوار واحداً بعد الآخر عندما يومئ الشيخ له بفتح الباب قليلاً بضعة بوصات، وقتها كان يسمح للزائر بأن يقبل يد الشيخ موسى اليُمنى بينما الشيخ بيده اليسرى على رأس الزائر، وإذا كان لدى الزائر سؤال عليه أن يطرحه على الشيخ عن طريق ابن أخته، وتأتى الاجابة عليه إما مباشرة من الشيخ أو بطريق غير مباشر عن طريق إبن الأخت، فعلى سبيل المثال لو كانت الاجابة على سؤال كهذا (هل أسافر فى هذه الرحلة؟) لو كانت الاجابة تعنى النفى، كان الشيخ يقول «أفعل ما شئت، أو أنت

حر» أما فى حالة الإجابة كان يقول «توكل على الله».

ففضلاً عن الشخص الذى كان يحضر له الماء فى جرة ثقيلة الشخص الوحيد الذى كان يراه بكامل هيئته، وليس يديه فقط هو الحلاق الذى كان يأتيه ثلاث مرات فى الأسبوع ليحلق له لحيتم، ذلك الذى يدير «صالون الشيخ موسى» فى سوق الأقصر، وقد كان متحفظاً جداً فى الحديث عن الشيخ، حتى بعد موته، مخافة أن يسخط عليه الشيخ فى حالة إعتباره غير أمين أو غير مخلص!

وكان يقدم إليه الطعام من خلال انفراج الباب قليلاً، والوجبة دائما وافرة يأكل منها القليل ويرد الباقى، هذا الباقى يفترض أنه مشحون بالبركة، تماماً كما كان يفعل بأوعية الماء حيث كانت تدخل إليه وتخرج من عنده إلتماساً للبركة فكان ينفخ فيها فى كل مرة.

وقد قيل أيضاً إن الشيخ موسى عبر نهر النيل على منديله، وكان من آن لآخر وبطريقة معجزة يخرج من باب حجرته بل يدع الباب مغلقاً ويطوف خارجاً وكان يتخذ أشكالاً متعددة، لقد ولد «ولياً» ومنذ البداية كان طفلاً غريباً، كان يرضع اللبن من أصبعه بدلاً من أن يرضع من ثدى أمه، ولم يره أحد مطلقاً يصلى!

وعندما مات سرعان ما تسربت الإشاعات والحكايات.. بأن الشيخ أرغم جنازته على التوجه إلى حجرته ليدفن فيها، وذكر أن جدلاً دار بين أهل قريته التى ولد فيها وبين بعض الناس الموجودين بالساحة وكان الخصام بينهم على مشكلة مكان دفنه «أين يدفن؟» فأثقل نفسه عليهم لمدة عشر دقائق فى المكان الذى قرر أن يكون مقامه فيه. ويؤكد خدم ساحته أن الشيخ موسى «دفن نفسه»!.. عقب الصلاة عليه بمسجد الشيخ يوسف!

وتتشابه شخصية الشيخ موسى من حيث كونه «ولى» مع شخصية الشيخ سليم، الذى تكرر ذكره فى يوميات الرحالة خلال أسفارهم فى صعيد مصر فى القرن التاسع عشر، فقد كان يجلس ليلاً ونهاراً على ضفة النيل قرب قرية «هوّ» وهو عار تماماً، مرتكز بذقنه على ركبتيه، وبقى هنالك أكثر من خمسين عاماً حيث مات عام ١٨٩١، وكان كل البحارة يتوقفون ليحيوا الشيخ ويحضروا له بعض التبغ ويقبلوا يديه، أما الذين يرفضون فعل ذلك كانوا يجدون أنفسهم مرتطمين بضفة النهر الرملية. وكان معظم الرحالة الغربيون يرون أنه قذر ويثير الاشمئزاز، غير أنهم لم يكونوا فى شك من أن «مقاماً» سيبنى عليه بعد موته!

وها هو مقام الشيخ سليم العريان يقوم على ضفة النيل فى

مكان إقامة الشيخ، وهو موضع لا يبعد كثيراً من مصنع الألمونيوم بنجع حمادى، وزُيِّنَتْ أبواب الضريح بقرون الخراف التى ذُبِحَتْ أمام مقامه نذراً له!

أما الشيخ زاهر ذلك الشيخ المنتمى للطريقة الرفاعية وهو من أهل الريف، فإنه يعتبر نفسه وآبائه من قبله فى مكانة ما من سلك الولاية، ولم يكن جده «أحمد أبو زعبل» ولا أبوه «عبد الله» من أرباب الأقلام، وقد دُفنا معاً فى ساحة كفر إبراهيم وهو مكان لا يبعد كثيراً عن «بلبيس» فى شرق الدلتا، ورغم أمية أبيه وجده إلا أنهما سلكا فى درب الصوفية واختارا الزهد والتقشف وتربية النفس على المشاق، وقد جرت على أيديهما عجائب وخوارق نافعة للناس (قام الشيخ أحمد بوضع حد لوباء الكوليرا بعد وقت قصير من وصوله إلى القرية!!) وكانا يهتمان اهتماماً عظيماً بالمريدين وقام الشيخ زاهر بتخليد ذكراهما، والجدير بالذكر أن الشيخ زاهر يعتبر الأب الروحى لحوالى ألفى شخص، وربما يجعل من نفسه «ولياً» بحكم الميراث!

والشائع، طبقاً للأحاديث المتوافرة، أن بقاء جسد الميت سليماً هو علامة على «الولاية» فقد ذكر هذا عن كثير من الأولياء، أن أجسادهم باقية، فقد ذكر عن سيدى «سيف» فى «أصفون» قرب «إسنا» الذى رأى بعض الأشخاص جسدهَ

ولمسه أثناء حفره للأرض فسال الدم من جسده على الفأس، كما ذكر ذلك عن الشيخ «مسلم» فى «أخميم» الذى وجد جسده وساروا به فى موكب يخترق الطرق منذ سنوات قليلة، كما ذكر الأمر عن «السبعة والسبعين» ولياً الذين دفنوا فى ضريح واحد فى أسوان.. وقد عُثِرَ على أجسادهم سليمة فى حالتها الطبيعية!!

وتؤلف «الكرامات» - كما يقول الصوفى الكبير «الجنيد» واحدة من ثلاث أحجبة يمكنها أن تغطى قلب الشخص المختار، أما الحجابان الآخران فهما الإهتمام الزائد بأداء فروض الطاعة (العبادات)، ورجاء جزاء الآخرة!

وكل الكتب التى ملئت بقصص الكرامات منذ العصور الأولى والمعجزات الجديدة، فإنه يدعى أنها تحدث فى كل وقت، فكثير من الخوارق يرجع إلى مقدرة «الولى» أن يرى.... ويعرف الأشياء التى حجبت عن الآخرين والتى لا يستطيع هو أن يعرفها من خلال الوسائل المعتادة مثل أفكار الحاضرين ونواياهم، وهويتهم وخلفياتهم، أو معرفة مرض إنسان غائب أو موته، إنه يستطيع أن يرى الحوادث مسبقاً، (وأن يحمى أتباعه منها) ويستطيع شفاء الأمراض، وأن يسهل للنساء الحمل، وأحياناً فإنه يؤذى هؤلاء الذين لايعتقدون فى الأولياء ولا فى

الخوارق، وينتمى كثير من الأولياء - وليس كلهم - ينتمون إلى طريقة صوفية معينة.

وسأذكر أمثلة قليلة فقط أغلبها يرجع إلى تاريخ حديث، وهذه الأمثلة تعطى انطباعاً عن عالم الأولياء والمعجزات التى تعتبر شيئاً جليلاً لعدد كبير من عامة الناس.

وقد أخبرنى عمدة إحدى القرى الصغيرة بمحافظة الشرقية عن حكايته، فقال «عندما كنت فى العشرين من عمرى كنت مجرماً، وفى إحدى الليالى كنت فى طريقى لسرقة شخص وبصحبتى رفقائى اللصوص فمررنا على منزل الشيخ «أحمد أبو زغلل» ودعانى لدخول بيته، طبعاً تركت سكيناً كانت معى خارج المنزل، فوبخنى وأخبرنى بقصدى ونيتى وأضاف أنه لا فائدة من إخفاء سكينتى، وللعجب فقد عرف كل شىء، فقررت من يومها أن أغير حياتى وأصبحت عضواً فى طريقة الأخوة الصوفية الرفاعية.

وفى مرحلة متأخرة كان الشيخ «زبو زغلل» يصلى بالناس إماماً بينما كان العمدة يصلى فى الصف الأخير، وذات مرة كان يفكر فى امرأة وهو يصلى، فاستدعاه الشيخ بعد الصلاة وقال له «هل أنت مع الله أم مع امرأة؟!... إنك تشوش على صلاتى»!!

كما ذكرت معجزات أخرى لهذا الشيخ، فقد اشتكى أتباعه يوماً من البرد القارص.. حيث كانوا مضطرين لتنظيف أغنامهم في إحدى القنوات المائية تمهيداً لذبح الأغنام في العيد، فقال لهم الشيخ «إذهبوا وادعوا الملاك ميكائيل ليغير لكم الطقس «وحقاً بعد الدعاء، طلعت الشمس وأصبح الجو لطيفاً لمدة سبعة أيام وكان ذلك في منتصف فصل الشتاء!!

وقد ظهر الشيخ بعد موته عام ١٩٧٥ في أحلام كثيرة ليذكر الناس أن يذهبوا... ويطعموا الكلاب التي تعيش في القرية، والتي نسيها الناس بسبب الأمطار الغزيرة (١٩٨٠)، كما ظهر ليخبر مجموعة من الدراويش أن يعجلوا بنصب خيامهم في المولد (١٩٨٧).

وبعد سنوات من موت الشيخ وذات ليلة في مولد «أبي مسلم» الذي يقام في القرية، دون أية تسهيلات أو إمكانيات، فكانت المراحيض التي قام أتباعه بحفرها لأنفسهم ووضعوها تحت تصرف الزوار الآخرين على وشك أن تصفح، وقد قررت المجموعة ألا تقصر استعمالها عليهم بل اختاروا المهمة الشاقة وهي تفريغ المراحيض وصبها في قناة وعزموا على فعل ذلك في الصباح، وعندما جاء الصباح ونظروا في الحفر وجدوها فارغة!!.

وفى حالات كثيرة عندما كان الشيخ رضوان يرى الرسول فى منامه كان يخبر المرضى أنهم سيشفون وسيعيشون!

وذات مرة كان الشيخ رضوان مع أحد مريديه «اسماعيل حسن» الذى كان قلقاً على شىء بالغ الأهمية بالنسبة له، فسأله الشيخ على سبب همه، فأجاب أن أخاه المسمى هريدى حسن كان مريضاً بمستشفى الأقصر، حتى أنه كان يخشى عليه أن يموت... وأصابه الإرهاق لبعد المسافة بين الأقصر وقريته «بنى هلال» علاوة على المتاعب المعروفة التى تصادف المرء فى مثل تلك الظروف، فقال الشيخ «إن لأخيك عشرين عاما أخرى يحياها»! اذهب وأنبئه بالخبر السعيد وبخبر شفائه وقل له ما قلت لك بالحرف الواحد، ولا تخشى الناس فيما يقولون، فأننى لم أعلم هذا من أبى وأمى، ولكن الذى يعلم الأسرار الإلهية هو الذى ألهمنى». وعلى ذلك ذهب الأخ اسماعيل إلى أخيه فى المستشفى وأخبره بكل شىء قاله له الشيخ، فظهرت عليه علامات الصحة والحيوية حتى غادر المستشفى!!

وفى عام ١٩٨٤، توفى الشيخ «سيد ذكرى» عن عمر يناهز الثلاثين وهو فى المملكة العربية السعودية ودفن «بالرياض» وعاود الظهور ثلاث مرات فى المنام لأشخاص لم يعرفهم من قبل، يحملهم رسائل تتضمن رغبته فى بناء مقام له فى قرية

«كركتان» على الضفة الغربية من النيل إلى الشمال من الأقصر، أى فى موطن إقامة أسرته، وشيد الضريح كما أراد، واعتبر أحد أفراد القرية أن هذا الفعل سخف وهواء، وعندما ذهب إلى بيته وجد بقرتيه الإثنتين قد مات ومنذ ذلك الحين يقام «ذكر» على قبره بعد العصر من كل خميس، كما يقام له مولد كل عام فى شهر الحجة بعد العيد الكبير مباشرة، واعتاد الناس أن يشكوا إلى الشيخ مشاكلهم من خلال أحد أخوته الذى يغطى نفسه برداء (بطانية) ويقوم بدور الوسيط، وقد رويت قصص وحكايات فى «أسوان» عن الشيخ «عادل» المنتمى إلى ضاحية «الحركوب» الذى مات وهو فى العشرين من عمره، وعن الشيخة «سعدية» التى عاشت ستة عشر عاماً فقط.

أربعة أيام من موت الشيخ «عادل» رأى أحدهم ثلاثة أحجار منصوبة على شكل مثلث ووجد بينها شموعاً موقدة، وقد فسر هذا الحلم كعلامة على أن الشيخ «عادل» يريد أن يبنى له ضريحاً، وقد كان.

وهناك أيضا حلم مشابه - أربعة شموع على حجر بينها رغيف أخضر - أدى إلى بناء مقام لسيدى «على أبو العبيد الرفاعى» فى كوم أمبو إلى جوار الضريح العتيق للشيخ «ادريس» وسيدى «محمد بن سليم الشاذلى» أكده حلم آخر رآه

ابن الشيخ حيث شاهد الأولياء الثلاثة جالسين إلى جوار بعضهم.

وهناك حالات لمشايخ أخرى اختاروا أماكنهم أو طريقة دفنهم مثل حالة الشيخ «أبو المعاطى» الذى دفن فى «نوب طحا» فى عام ١٩٨٤ وزوجته التى دفنت عام ١٩٨٧، وقد قيل أنه خلال تشييع جنازة كل منهما وجها حامليها إلى المكان الذى يريدان أن يكون مقاماً لهما، وذكر ذلك أيضاً عن الشيخ «عبد الله الأمين المسلمى» الذى مات عام ١٩٨٦، ففى أثناء جنازته تعلق نعشه فى الهواء لساعات قبل أن يتحرك لينضم إلى جده فى قبره، وقد ظهر لصديق له من قرية أخرى فى المنام قبل ليلة واحدة من موته وطلب منه أن يحضر إليه فى اليوم التالى ليغسله!!

وكما ذكر الشيخ زاهر «فإن الكرامات هى وقود أعمالنا، يحدث أحياناً أن يقول القلب أن شيئاً ما ممكناً، بينما يقول العقل أن هذا غير ممكن، وعندما يرفض العقل أن يتعاون هنا يأتى دور الكرامة، فلو أنه ليس هناك كعجزات ما أستطاع أحد أن يستمر»!

هذه النظرة العملية لأحد الشيوخ تتوافق مع رؤية كاهن قرية أو رجل دين فى بيئة مسيحية، مع طبيعة عملية وواقعية تتسم

بها كثير من المعجزات، ذلك أن الخوارق ذات المستوى الرفيع، والتى لا يمكن إنكار وجودها، إنما تدل على اصطفاء الله لبعض عباده الذين خصهم بهذه الكرامات.

وبالإضافة إلى الخوارق الحسية فإن كثيراً من الأولياء يعرفون إسم الله الأعظم الذى يضمن لصاحبه تحقيق معجزات (وهذا أمر مشابه للوصفات السحرية التى وصفت فى العصور الفرعونية لتأمين الصراط الموصل إلى العالم الآخر) كما أن أسماء الله تهب حاملها قوى خارقة.

وبعض شيوخ الطرق يستخدمون أوراداً خاصة، لتحقيق أغراض معينة...

فعلى سبيل المثال «الورد البيومى» الذى يشرح بدقة الاستخدام الدقيق «لأسماء الله» أو استخدام وصفات وأوراد وتعويذات أخرى فى أيام معينة – فى أول أيام الأسبوع يذكر «لا إله إلا الله» ١٦٥×٩٠٧٣ مرة بعد كل صلاة والصيغة الثانية «الله» ٦٦×١٧٤٣٤ مرة، والثالثة «هو» ١١× ١٤٦٤١ مرة والرابعة «حق» ١٠٨× ١١٦٦٤ مرة إلخ.. يبدو من النظرة الأولى أنك تقترب منها ولكنها فى الواقع صيغة دقيقة شديدة المبالغة للوصول إلى «النورانية» أو.... «الشفافية».

وعلى أية حال فإن كثيراً من الشيوخ بما فيهم الشيخ زاهر،

يمارسون كتابة الأحجبة لعلاج الصداع والأمراض الأخرى أو للحفظ من شرور العين «الحسد» فيقال إن «العين تفلق الحجر» وقد ذكر الحسد فى سورة من أوائل سور القرآن «سورة الفلق» وهى تعد «حجاباً» بذاتها، وقد يحسد البعض دون معرفة بالحسد أو قصد بفعله، ويمكن للشخص أن يحفظ نفسه من الحسد بالأحجبة المكتوبة أو بالإشارة باليد مفتوحة الأصابع (خمسة وخميسة) التى تسمى أيضاً (يد فاطمة) فيمكن أن ترى تلك العلامة (خمسة وخميسة) معلقة فى سلاسل بالرقاب أو مشبوكة بملابس الأطفال، وتعلق فى السيارات والمحال، وترسم على سيارات النقل وعلى مراجيح الموالد، كما يمكنَ رسم رقم خمسة بدلا من علامة اليد وغالباً ما ترسم مع عين زرقاء!

وعلاقة الناس بأوليائهم، تشبه إلى حد كبير علاقتهم بمن هم أكبر منهم سناً من أقاربهم ذوى المكانة الرفيعة المحترمة، وغالبا ما يطلق عليهم (أم) أو (ماما) أو (أب) أو (عم)، وهم يزورونهم ويعدونهم بالنذور والعطايا إذا هم نفذوا رغبات زائريهم، وفى بعض الأحيان يقبل «الولى» تمرد المريد أو دلاله!.. كما فى حالة «عم عواد من «أصفون» فقد عاشت أسرته إلى جوار ضريحه واعتبروا أنفسهم فى حمايته وفى المقابل فإنهم كانوا يعتنون بقبره، وفى يوم من الأيام سرقت كل

سجاجيدهم وأرديتهم، وصرح رب الأسرة عن امتعاضه للولى بصوت عال ونذر أنه منذ اللحظة لن ينظف المقام، حدث هذا بالليل فى الصباح التالى وجدت المسروقات بالمقام واستأنفت الأسرة خدمتها له ثانية!

ويتلقى بعض «الأولياء» خطابات مثل حالة مقام «أبو السعود» والحالة الأخرى تخص مقام الإمام «الشافعى» وكلاهما بالقاهرة وبشكل عام فإن المقامات تحاط بمربع متواضع البناء مغطى بقبة مستديرة أو مخروطية الشكل، أما الأضرحة الأكثر أهمية فقد أضيف إليها على مر الزمن مساجد بجوارها، وفى مثل تلك الحالات تميز حجرة الدفن الى تحتوى على القبر قبة، ويحتوى الضريح على تركيبة تشبه التابوت ويمكن أن يضاف إليها شاهد قبر تعلوه «عمامة» فى نهايته فى الناحية التى يتصور أن رأس الولى بأسفلها، ويغطى التابوت كسوة ملونة ومطرزة، خضراء اللون فى الغالب - وهو اللون المفضل عند النبى - أو كسوة بيضاء وغالباً ما تحاط بمقصورة صنعت من الخشب أو المعدن، وحول المقصورة فضاء من الأرض داخل الحجرة تمكن الزائر من الطواف حول القبر أو الجلوس إلى جواره أو الصلاة أو الاضطجاع.

ولبعض المقامات شجرة مباركة ترتبط به، حيث يعلق بها

بعض الناس قطعاً صغيرة من القماش مأخوذة من ملابس شخص يرجون له الشفاء.

ويفرح الأولياء بزيارة الناس لهم ويستاءون من تجاهل الناس لهم كما أوضح ذلك الشيخ رضوان فى مثال آخر له فى قائمة المعجزات حيث يقول أحد الناس: «بعد أعوام طويلة كان لى طفل بقى غير قادر على المشى» فقال الشيخ رضوان له: «اذهب إلى الجبانة فى قريتك ستجد قبر (ولى) وهو من نسل الرسول (أى أنه شريف) وهو من المغرب، وهو يلومكم أيها الناس قائلا «ها هم لا يودون زيارتى بالرغم من أنى أنتمى لمن دعوتهم لا ترد، فلو جاءوا إلىّ بهذا الصبى العاجز عن المشى فإن الله سيشفيه»».

فذهبوا إلى «الولى» الشيخ «يونس» ونجحت الزيارة، فمشى الصبى بشكل طبيعى وشفى خلال الأسبوع الذى تمت فيه الزيارة، وحكى لنا الشيخ رضوان عن المعجزات الأخرى لهذا الشريف وعن علمه فى زمن حياته وعن علاقته الخاصة بالله سبحانه وتعالى.

وتتم زيارة الأولياء على اختلافهم تبعاً لاختلاف الغرض، وتعد الزيارة بغرض الشفاء من العقم واحدة من أهم التخصصات عند الأولياء، حيث أنها تشكل أكثر المشاكل

الشخصية إيلاماً حتى فى بلد بها نسبة المواليد عالية مثل مصر، فهناك ولى يقال أنه مؤثر فى هذا الحقل وهو الشيخ «منصور» الذى يعده البعض معاصراً للرسول، والذى يستحوذ على مقام صغير يعلوه علم أخضر على صخرة فى النيل فى أسوان فى مقابل فندق «أوبروى» وتعتاد النساء زيارة الشيخ ويحضرون له «الفتة» حيث يلقون بها فى النهر، ويزور الشيخ «منصور» أيضاً العرسان الجدد.

وتنسب قوى مشابهة«للشيخة بدوية» وهى امرأة «ولية» فى جبانة الخانكة ماتت فى السبعينات وتحضر النساء عادة السكر كهدية ويتمسحن ويمسحن رؤوسهن وبطونهن بقماش الضريح للتابوت، وعلى الجدران عشرات من النذور وهى عبارة عن أوان فخارية بها ورود بلاستيكية.

وليست كل المقابر المقدسة (المباركة) تنتمى إلى أولياء بالمعنى الحرفى للكلمة، فصاحب المقام يمكن أن يكون نبياً مثل النبى «صالح» فى وسط سيناء ومقامات الأنبياء، «دانيال» و«لقمان الحكيم» فى الاسكندرية، كما يمكن أن يكون القبر لأحد معاصرى النبى (أنصارى أو صحابى) الذين هم فى الغالب من عاونوا عمرو بن العاص فى فتح مصر فى سنة ٦٤٠م وما بعدها مثل «سيدى عقبة» و«سيدى محمد النخال»... وكثير غيرهم فى

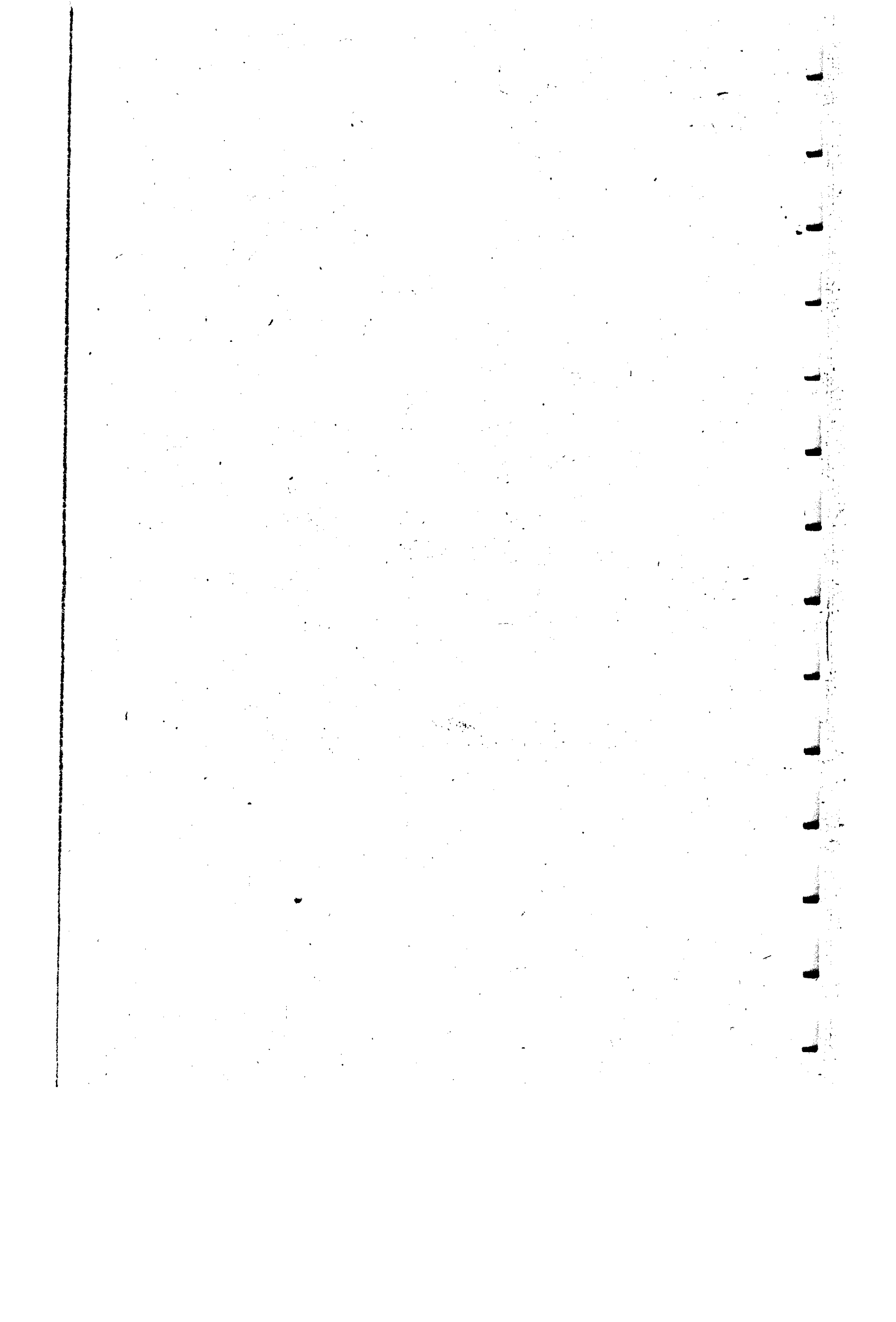
مقبرة القاهرة الجنوبية، والشيخ ادريس فى كوم امبو والشيخ «عامر» وغيرهم فى «دراو» و«سيدى شبل» وإخوته السبع مع أربعين من أصحابهم فى مدينة «الشهداء» و«الأربعة عشر محمدا» الذين دفنوا سوياً فى الاسكندرية قرب مسجد الولي الشاذلى «أبو العباس المرسى»

ويوقر البارزون من آل بيت الرسول على أنهم أولياء ففى عقيدة الولاية يحتل «آل البيت» مكانة رفيعة تبنى على فكرة أن بعض بركة الآباء تنقل إلى الأبناء، وهناك حديث لرسول الله أن «أهل بيتى كسفينة نوح من يلجأ إليهم ينجو، ومن يدعهم يغرق» والقاهرة على وجه الخصوص غنية بأضرحة أهل البيت وتقام لهم موالد شهيرة، وأشراف العصر الحديث، ينتظمون تحت رئاسة نقيب السادة الأشراف، ويتخذون لأنفسهم سرادق خاصاً بهم فى الموالد يستقبلون فيه زوارهم.

نصوص غريبة..

فى

الموالد والموالدية



جومار فى مولد فاطمة النبوية

ارتكزت العلاقة بين الشرق والغرب – منذ الحملة الفرنسية – على اتساع معارف أوربا عن الشرق عامة، ومصر خاصة، من خلال حصيلة ضخمة من أدب الرحلات وتقارير العلماء والمستشرقين والدبلوماسيين...

وفى كتابه «وصف القاهرة وقلعة الجبل» قدم لنا العالم الفرنسى المهندس الجغرافى، الأثرى «فرانسوا جومار» عضو البعثة العلمية المصاحبة لحملة بونابرت، والذى أسهم فى تأسيس المجمع العلمى المصرى بالقاهرة، والجمعية الجغرافية بباريس، حصيلة جهود مضنية بذلها فى صياغة وثيقة بالغة الأهمية عن القاهرة وتاريخها وخططها وآثارها وتقاليد مجتمعها فى ذلك العصر.. وقد سَجَّل انطباعاته عن موالد بعض من أهل البيت، منها:

مولد السيدة فاطمة النبوية:

يستمر الاحتفال بمولد السيدة فاطمة بنت الحسين حفيدة النبى (صلى الله عليه وسلم) ثلاثة أيام، تبقى خلالها الحوانيت

مفتوحة ومضاءة طوال الليل. وفى اليوم الذى شاهدت فيه إحياء هذا الاحتفال، قام الشيخ السادات، شيخ جامع فاطمة النبوية بعمل إستعدادات كبيرة جداً، فقد تمت إضاءة الجامع وكل الحى.

والإضاءة التى يقوم بها خاصة السكان أجمل وأغنى مما يتم لدينا. وقد وضع تاجر بلح بائس أمام دكانه، الذى لا تتسع واجهته أكثر من خمسة أقدام، نحو خمس عشرة أو عشرين اضاءة عبارة عن مصابيح صغيرة من الزجاج بأشكال مختلفة، وعلى المتفرج أن يحكم على شارع تجارى مضاء بهذا الشكل. وكان بمنزل الشيخ السادات، المواجه للجامع، قطع ضخمة من الإضاءة، بشكل صنوبرة ضخمة أو أهرام مقسمة إلى أرفف كلها مزدانة بالمصابيح. وقد كان الورع شديداً، فقد شاهدت أكثر من مرة المسلمين يلمسون بأيديهم الحائط الخارجى للجامع ثم يعيدونها إلى أفواههم ويقبلونها ويمسحون بها على صدورهم والشوارع مزينة مثل شوارعنا خلال فترة الاحتفال، فنرى عربات الباعة الجائلين مزينة بأوراق زرقاء وبيضاء يباع عليه البرتقال والبعض الآخر الحلويات والمسكرات.

وموضوع التبجيل (فى هذا المولد) قبر بنت حفيد النبى (صلى الله عليه وسلم) وقد تصل حمية الورع ببعض المؤمنين

المسلمين إلى حد ذرف الدموع.

وفى مولد السيدة زينب:

ويحتفل بمولد السيدة زينب أيضا بأنوار الزينة الكبيرة. ففى اليوم الأول، فى الساعة التاسعة مساء، يتحرك موكب فى مقدمته أفراد يحملون مشاعل عبارة عن أقفاص من الحديد تحرق فيها أخشاب صمغية مرفوعة فوق قضيب خشبى، ثم يأتى بعد ذلك المغنون والآلاتية على دفعات متتالية، ثم يتبعهم ستون إلى ثمانين رجلا يحملون أهراماً من المصابيح يبلغ ارتفاعها ستة أقدام وتحوى المئات من المصابيح. ويختلط بهم رجال تقاة يتبعون الموكب وهم ينشدون الابتهالات الدينية وفى نهاية الموكب يأتى اثنى عشر رجلا متشين بالبياض، ثم يختم شيخ الجامع الموكب. وينتج عن هذه الأهرامات المضيئة الكثير من الانبهار على الأخص بسبب حركتها المستمرة. ويجب أن نعترف أن أنوار الزينة الخاصة بالمصريين تتفوق، من بعض النواحى، على أنوار زينتنا، فحوانيتهم دائما مفتوحة بعكس حوانيتنا التى تكون مغلقة، ولذلك فبدلا من أن يضعوا فانوسين ورقيين كما نرى أمام حوانيتنا، فإنه يوجد دائماً أمام حوانيتهم بين ثمانية وعشرة فوانيس وأحياناً ضعف هذا العدد. وجامع السيدة زينب كان مزداناً بهرم رائع تحمله أعمدة من اللهب يبلغ

ارتفاعها أكثر من خمسة عشر قدماً معلقة فى الشارع وتحوى أكثر من مائتى مصباح. وكان حشد الناس غفيراً فى كل شوارع الحى. ويتكرر هذا الموكب فى اليوم الثالث بنفس الهيئة الأولى.

وفى مولد الحنفى:

وتقام خلال شهر شعبان احتفالات عديدة لإحياء موالد العديد من الأولياء من بينها: مولد الشيخ الحنفى، وهو شخصية فى غاية التقديس، ويستمر خمسة عشر يوما. وتتألق هذه الأعياد على الأخص فى المساء والليل، فتضاء الدكاكين بنحو اثنى عشر أو عشرين قنديلا وتكون كل الدكاكين مفتوحة. وتعلق أمام الدور الرئيسية ثريات بها المئات من المصابيح أما الشوارع، التى هى بالفعل فى غاية الضيق، فإنها تضيق أكثر نتيجة لعرض بضائع الحلوانيين والبضائع الأخرى. إذا أضفنا إلى ذلك حشد الناس الذين يمرون فى الشوارع.. وصخب الأصوات المشوشة وبريق الثياب الحمراء والملابس الأخرى، فإنه بإمكاننا أن نكون فكرة عن هذه النوعية من الأعياد التى تختلف بعض الشىء عن غيرها إذ لا يزينها على الإطلاق وجود النساء. ويجلس الأتراك وهم مرتدون أحسن ملابسهم أمام منازلهم أو فى دكاكين الحلاقين وليس لهم تسلية أخرى غير

التدخين. وقد شاهدت فى الليلة الكبيرة للمولد (التى هى آخر يوم فى الشهر الذى يقع فيه المولد) أبهى ما يمكن أن يعمله المصريون من وقيد وإضاءة. فقد توقف عدد من «الفلاحين» والمتسكعين أمام قوارب صغيرة مضاءة تجر على حبال من خلال الشوارع. وقد كان الشارع «درب الجماميز» الذى يقع فيه جامع الحنفى، وهو ضيق جداً وطويل جداً، مزدحما حقا بالأنوار. وفى هذه اللمحة شىء من السحر بسبب آلاف الأنوار المتقاطعة والتى تشع فى كل الاتجاهات!

ادوارد لين فى مولد مولانا الإمام الحسين

كان ظهور كتاب «المصريون المعاصرون» **لادواردلين** أو «منصور أفندى» عام ١٨٣٦ نقطة تحول بارزة فى تاريخ العلاقة بين مصر والرحالة والمستشرقين الأوربيين، كما أسهم فى ظهور اتجاه جديد فى أدب الرحلات إلى مصر، كذلك قدم تفسيراً دقيقاً لنظم المجتمع الاسلامى، التى شكلت بالنسبة للأوربيين خلفية قصص «ألف ليلة وليلة» عايش **لين** حياة المصريين... عاداتهم وتقاليدهم.. وارتدى الزى الشرقى وأتقن اللغة العربية، واستغرقت هذه الحياة بأدق تفاصيلها كل وجدانه، فاكتسب السلوك الإسلامى، حتى أنه كان يؤدى الصلاة مع المسلمين فى المساجد!.. وامتنع عن تناول الخمر ولحم الخنزير، وعقب عودته إلى انجلترا، كان لا يبدأ عمل اليوم إلا بنطق البسملة.. وقد امتلك قدرة فذة فى التمييز بين الشكل والجوهر فى التعبير عن مشاهد وموضوعات بالغة التعقيد، فيقول عن مظاهر الاحتفال بمولد الإمام الحسين:

«يشهد جامع الحسين خلال فترة خمس عشرة ليلة وأربعة

عشر نهاراً فى شهر «ربيع الثانى» (الشهر الرابع الهجرى) احتفالا «بمولد الحسين» تكريماً لذكرى مولد الحسين الذى يقال أن رأسه مدفون فى هذا المكان. ومولد الحسين أكثر الموالد إحتفالاً فى القاهرة لا يتجاوزه أهمية سوى المولد النبوى. ويصادف دائماً احتفال مولد الحسين نهار ثلاثاء، وأما الليلة التى يطلق عليها فعلا ليلة المولد فهى الليلة التى تعقب الثلاثاء مباشرة، أى ليلة الأربعاء. ويقع مولد الحسين عامة بعد حوالى خمسة أو ستة أسابيع من مولد النبى. وأما هذه السنة (وأنا أكتب فى وقت الاحتفال الذى أصفه اليوم فى سنة ١٢٥٠ للهجرة/ ١٨٤٣ للميلاد) فقد تم تحديد ليلة الحادى والعشرين من الشهر ليلة الاحتفال بالمولد.

يضاء الجامع فى كل ليلة من الليالى الخمس عشرة التى ذكرتها آنفاً بعدد كبير من الأضواء والشموع التى يشمخ بعضها خمس أو ست أقدام. ويتولى «ناظر» الجامع إضاءة الجامع فى الليلة الأولى من الأموال المُتَبَرَّع بها للجامع، ويضيؤه حاكم العاصمة فى الليلة الثانية (وهو حبيب أفندى حالياً)، وشيوخ بعض طبقات الدراويش فى الليالى المتتالية إضافة إلى بعض موظفى الجامع الكبار والأغنياء من الناس. وتبقى المحلات التى تبيع المأكولات والمشروبات وكذلك المقاهى

مفتوحة أبوابها فى تلك الليالى، حتى أن المحلات والمقاهى الواقعة فى أحياء أخرى لا تقفل حتى انبلاج النهار، فيحتشد الناس فى الشوارع القريبة من الجامع يستمعون إلى المزيكاتيين والمغنين وبعض رواة القصص الشعبية. كذلك يشهد الجامع اكتظاظاً. ونجد فى قسم من رواق الجامع الكبير لفيفاً من الناس يفترشون الأرض فى صفين مواجهين فيقرأون جماعة بعض أجزاء من القرآن. وهذا ما يعرف «بالمقرأه» وقد ينقسمون جماعات جماعات عند القراءة. ويقع نظرنا فى قسم آخر من الجامع على فريق يقرأ من كتاب «دلائل الخيرات» وهى مدائح فى رسول الله صلى عليه وسلم، ونجد فى قسم مغاير جماعة من الناس يتلون أشكالاً محددة من الصلاة وغيرهم يتلو الذكر. وتصادف أفراداً يتجولون بين مختلف هذه الجماعات وهم يؤدون صلواتهم وتضرعاتهم عن روح الحسين أو يجلسون على الحُصْر، وهؤلاء هم الزوار الذين قصدوا الجامع لشتى الأسباب فإما تقوى أو مجرد فضول أو حباً بالترفيه والتسلية. ويجتمع عادة عند الضريح لفيف من الدراويش أو غيرهم (وهو مغطى بقُبَّة كبيرة ويعرف من هذا المنطلق «بالقُبة») يتلون أشكالا من الصلاة. ويدخل الزوار الضريح عادة لأداء سورة الفاتحة والدوران حول الضريح، بيد أن أكثر أروقة الجامع

اكتظاظاً هو الرواق الكبير حيث تتوالى حلقات الذكر وتقام غيره من الاحتفالات.

نرى فى كل ليلة من ليالى هذا الاحتفال «الأشاير» وهى مسيرات الدراويش المنتمين إلى طريقة واحدة أو عدة طرق يمرون فى الشوارع حتى جامع الحسين يسبقهم اثنان أو ثلاثة من الرجال بطبولهم ومزاميرهم وصناجاتهم أحياناً ويرافقهم حاملو المشاعل. ويجمعون أفرادهم فى منازلهم وهم فى طريقهم إلى الجامع وإذا مروا بضريح أحد الأولياء تتوقف موسيقاهم لفترة بسيطة ويتلون سورة الفاتحة أو مدحاً فى الرسول مشابها لما يقولونه فى بداية الشموع) ويزورون الضريح ثم يعودون أدراجهم، باستثناء شيخهم وقسم منهم الذين يبقون أحياناً فى القبة ويشاركون فى تلاوة الصلوات.

ومن الليالى التى تستقطب أنظار المصريين ليلة الجمعة (أى تلك السابقة ليوم الجمعة) قبل ليلة المولد مباشرة، وهى ليلة «الشيخ الجوهرى» وهو رجل ثرى يضىء الجامع فى هذه المناسبة بأضواء مشعشعة غير عادية. توجهت فى تلك الليلة بعد المغيب بحوالى الساعتين إلى الجامع قبل بدء الاحتفالات. وكنت كلما دنوت من الجامع وجدت الشوارع محتشدة بالناس. ففى زاوية تجمع الموسيقيون إضافة إلى راقصين يونانيين من

الصبية و«جنك» متأنق متخنث فى مظهره منسدل الشعر يرقصون علي أنغام آلات المندولين التى كان يعزفها اثنان من مواطنيهم وحشد من الأتراك المتحمسين المعجبين مع طائفة بسيطة من المصريين تحيط بهم. وعلمت أن هؤلاء كانوا حاضرين فى أدائهم فى الليلة السابقة وأنهم أصبحوا وقحين بسبب تدفق الحسنات عليهم فكانوا لا يترددون مثلا عن وضع اليد على سلة عنب فى الشارع.

ودخلت الجامع ووجدته أكثر احتشاداً من العادة - أكثر من الليالى السابقة - والملاحظ أن الأضواء التى كانت تتلألأ نوراً فى أرجائه تكاد لا تفوق كثيراً الأضواء المشعة من الشمعدانات التى تزخر بها الكنيسة الانكليزية عدداً. ورجعت جلبة مشوشة فى الرواق الكبير ولم تعد العين تشاهد شيئاً ولا الأذن تسمع صوتا. وما هى إلا لحظات قليلة حتى بدا المكان مناسباً لاحتفال دينى. وأحصيت عدداً من الأتراك وبعض معارفى بين الزوار. وجلست أولا لأرتاح مع أحد أصدقائى وهو بائع كتب ولفيف من أصدقائه الدراويش الذين كانوا يستعدون لإحياء ذكر برئاسته. وقدموا لى القهوة التى دفعت ثمنها قرشاً للمنشد. ولم تمض على بداية الذكر الذى كان مشابهاً للذكر الذى أتيت على وصفه فى مولد النبى حتى نهضت لزيارة المقام... ولما انتهيت

من الزيارة، خرجت من القاعة حيث احتشدت جماعة من الدراويش يتلون الصلوات ويجلسون في شكل مربع بقدر ما تسمح به مساحة القاعة باستثناء الجزء الذى يحتوى الضريح. ولكننى ما أن طفقت عائداً إلى الرواق الكبير حتى سمعت جلبة كبيرة: إذ كانت أفواج الناس تتدافع إلى نقطة واحدة على بعد مسافة بسيطة منى وسمعت رجلاً يصرخ: «نصرانى! كافر» واستنتجت أن أحد الزوار اكتشف أمر وجود نصرانى في الجامع وتوقعت لغطاً كبيراً. ولما سألت أحد الواقفين عن الأمر قال لى إن مثل هذه الكلمات تستخدم كشتائم يوجهها المسلم للآخر الذى يكون قد أساء إليه! واندفع أحد موظفى الجامع راكضاً من القبة وفى يده عصا وأعاد الأمن والنظام إلى المكان. ولم أكن لأكتشف حقيقة الأمر، سواء طُرِدَ الشخصان اللذان أحدثا القلاقل أو لم يُطْرَدا - ورأيت أنه لمن الحكمة فى حالتى التوقف عن طرح الأسئلة. وكان عند مدخل القبة فريق يقرأ بصورة جهورية جماعية كتاب «الدلائل» الذى ذكرته سابقاً. وبعد أن وقفت دقائق معدودة لسماعهم، رغم أن عدم وضوح أصواتهم جعل من المستحيل على تمييز الكثير من الكلمات التى تلفظوا بها، عدت إلى الذكر الذى حضرته أولاً. ولم ألبث أن سمعت أصوات قرع الطبول الصادرة عن فريق من الدراويش

العيساوية الذين استقطب ذكرهم الحشود الفقيرة تلك الليلة فى نهاية الرواق الكبير. ونهضت فوراً ومشيت قدماً ولحقنى صديقى بائع الكتب بعد أن ترك ذكره وصرخ بتهور: «يا افندى خذ محفظتك» وشعرت لدقيقة أن سروالى قد سُحِبَ مرات عديدة ووجدت لاحقاً ثقباً كبيراً فيه! يبدو أن احدهم قطعه بسكين حاد بحثا عن جيبى: فعندما يكون الجامع مزدحماً بالناس كما كانت الحال فى ذلك اليوم، يتسلل بعض النشالين إلى حرم هذا المكان الطاهر. وكدت أيأس من الاقتراب من العيساوية عندما نادى خادمى الذى اصطحبته معى ليحمل لى حذائى الأشخاص حولى: «هل تعرف من الذى تدفعه؟» ووجدت فورا الطريق مفتوحة أمامى وكانت قد انقضت ثلاث ساعات بعد المغيب.

لابد أن أذكر قبل المباشرة فى وصف أداء العيساوية أنهم طبقة من الدراويش يتألفون فى معظمهم من المغاربة أو عرب شمالى افريقيا. ويستقى هؤلاء تسميتهم من اسم شيخهم الأول «سيدى محمد بن عيسى» وهو من المغاربة. يتميز أفراد العيساوية بأدائهم الغريب المدهش ويشتهرون بنوع مميز. وكنت تواقا لمعرفة إن كانوا سيؤدون ذكرهم الذى طالما سمعت عنه ولم يخب ظنى رغم أننى سمعت أنهم لم يقدموا هذا الذكر

لسنوات طويلة قبلاً.

وجدت نحو عشرين من هؤلاء الدراويش فى شتى ألوان الملابس يفترشون الأرض متراصين متلاصقين فى شكل حلقة أمام الجدار المواجه للمبنى. وكان الواحد منهم ما عدا اثنين يضرب «طارا» كبيراً يبلغ أكثر من قدم عرضا ويختلف عن الطار العادى بغياب القطع المعدنية الرنانة المعلقة إلى إطار هذا الأخير. وكان أحد الرجلين اللذين ذكرتهما يضرب طاراً صغيراً من النوع المعروف، بينما كان الشخص الثانى يضرب بازاً صغيراً، وترك المحتشدون فسحة أكبر من تلك التى كان يشغلونها أمام حلقة الدراويش هذه لدراويش آخرين من الطبقة ذاتها. وما أن بدأ الدراويش السابقون بضرب طاراتهم، حتى قام الآخرون الذين كانوا ستة دراويش بأداء رقصة غريبة هاتفين أحياناً: «الله» وأحياناً أخرى: «الله مولانا». ولم يشهد رقصهم انتظاماً أو اتزاناً وكان يبدو أن الواحد منهم يؤدى رقصة مجنونة مُحَرِّكاً جسده طلوعاً ونزولاً قبل أن يدور حول نفسه ثم يحرك ذراعيه بطريقة غريبة ويقفز ويصرخ أحياناً: فلو أن غريباً كان يشاهد رقصهم دون أن يعلم مُسبقاً أنهم يؤدون رقصة دينية انفعلوا فى أدائها، لأعتقد أن هؤلاء الدراويش الراقصين يحاولون جاهدين التفوق على بعضهم البعض فى

أداء دور المهرج، وتأتى طريقة لباسهم لترسخ هذه الفكرة فى الأذهان. كان أحدهم يرتدى قفطاناً لا أردان له ولا حزام يتمنطق به، أما رأسه فكان عارياً من أى عمامة ويبدو أنه لم يحلق منذ سنوات! وكان غيره يعتمر قلنسوة قطنية. لكنه كان عارياً من الرأس إلى الخصر لا يغطى جسده سوى سروال فضفاضى. كان هذان الدرويشان المؤديين الرئيسيين للذكر، واندفع أحدهما وهو أسود البشرة متوسط العمر هزيل البنية بعد أن رقص بطريقة غريبة لبضع دقائق واتسمت حركاته بالغرابة والوحشية نحو الحلقة التى شكلها إخوانه الذين كانوا يضربون الطارات. وتوسط هذه الحلقة طبق إحماء صغير من القصدير ملئ بالفحم الحجرى المشتعل. وتناول الدرويش من هذا الطبق قطعة من الفحم المشتعل وضعها فى فمه، وفعل الشىء نفسه مع قطعة ثانية وثالثة حتى امتلأ فمه، وراح يمضغ قطع الفحم الملتهبة فيفتح ملء شدقيه فى كل مرة ليظهر للمتفرجين محتواه، ولم تمض دقائق ثلاث حتى كان التهم الفحم كله!.. ولم يبد الدرويش أدنى ألم أو وجع، وكان مفعماً بالحيوية خلال هذه العملية وأكثر نشاطاً بعدها! وتبين أن الدرويش الاخر الذى أشرت إليه سابقاً بأنه شبه عار سليم البنية وكأنه فى ريعان شبابه! وعنفت حركاته بعد أن رقص مدة مساوية

للدرويش الأول وأمسك بأكبر قطعة فحم مشتعلة ووضعها فى فمه وأبقاه مفتوحاً لنحو دقيقتين. وكانت أكبر قطعة فحم وفى كل مرة يتنفس فيها خلال هذه الفترة تطلق دخاناً أبيض. وعندما أرسل زفرة عميقة ومضت شرارات من فمه ثم مضغ قطعة الفحم وابتلعها وتابع رقصه!.. وبعد انقضاء نصف ساعة تقريباً على رقصهم توقف الدراويش للراحة.

وقبل أن يأخذ الدراويش قسطاً من الراحة بدأ فريق آخر أداءه الخاص بالقرب من وسط الرواق الكبير. وأخذت مكانى بين المشاهدين وكانوا رتبوا أنفسهم بالطريقة نفسها كما الفريق السابق. وتألفت الحلقة من ضاربى الطبول وهم يوازون الذين سبقوهم عدداً والفرق أن الراقصين لم يتجاوز عددهم الاثنى عشر راقصاً.

وتناول أحدهم طويل القامة مرتدياً ثوباً صوفياً داكناً حليق الرأس من طبق الإحماء الذى قدمه إلى الراقصين - كما لو كان طبق حلوى - قطعة فحم مشتعلة متوهجة ووضعها بين أسنانه لفترة قصيرة ثم سحبها فوق لسانه، وأبقى فمه مفتوحاً لأكثر من دقيقتين حسب ما أعتقده ثم أخذ يشهق ويزفر بشكل عنيف فيتأجج فمه أتون نار مطلقاً شرارات اللهب كما فعل الدرويش السابق ولكن بإثارة أقل. وانضم بعد مضغه قطعة الفحم

وابتلاعها إلى حلقة ضاربى الطبلة، وجلس فكاد يلتصق بقدمى، وتفحصت وجهه ملياً ولم ألحظ آية معاناة أو ألم عليه، وشاهدت هذا الأداء الرائع لساعة تقريباً. وبعد ذلك توقف فريق الدراويش للراحة، ولم أجد شيئاً آخر تجدر بى مشاهدته فغادرت الجامع.

يأكل العيساوية فى هذه المناسبة أحياناً الزجاج كما النار. ولقد اشتهر من بينهم الحاج «محمد الصلاوى» كأحد أبرز آكلى النيران والزجاج، كما ذاع صيته لأنواع أداء أخرى، وهو ذا قامة مهيبة وكان يضىء الأنوار فى جامع «الحسين» ولقد توفى منذ سنوات. ومن عادة الحاج الصلاوى عندما يبلغ ذروة اهتياجه وتأثره الوثوب فوق عارضات الخشب الطويلة الممتدة عبر العقود فوق عواميد الجامع والمرتفعة ست عشرة قدم أو أكثر من الأرض ثم يقفز من الواحدة إلى الأخرى، بعد ذلك يبلل إصبعه فى فمه ويحرك ذراعه ويجعل الدم يتدفق ويعمد بالطريقة عينها إلى وقف النزف.

يستمر الذكر خلال هذا الإحتفال طوال الليل. ويمضى الكثيرون الليلة نياماً فى الجامع على الحُصْر، وقد تنشط حوادث السرقة كذلك....

ولم أشهد فى الليلة التالية طوال كل الاحتفال سوى ما قام به صديقى بائع الكتب الذى كان راغباً فى اعتبارى مسلماً ورعاً

(أو لأنه أراد القيام بعمل صالح) وكان نفسه يترأس ذكراً. إذ طلب ودون إذن مسبق من أربعة فقهاء تلاوة القرآن (أقصد ختمة كاملة) أقدمها لروح... سيدنا الحسين. ولم أكن بوسعى معارضته لأن ذلك قد يثير الشكوك فهذا أمر طبيعى شائع فى مثل هذه المناسبة بين أبناء الطبقتين الغنية والمتوسطة.. وأعيدت هذه الختمة فى فترة بعد ظهر اليوم التالى وكذلك فى المساء، وكان كل فقيه يتلو جزءاً من القرآن ثم يعطى الدور لغيره وهكذا دواليك حتى انقضت تسع ساعات على هذه الحال. ولما إنتهى الفقهاء ذكروا إسمى الشرقى المزعوم على أساس أننى صاحب هذا العمل التقى، وحصل كل واحد منهم على شمعة وشىء من الخبز وقرش واحد.

ترفع نهار الاثنين الحصر إلا القليل منها فيجلس عليها جمع من الفقهاء مهمتهم تلاوة القرآن. ويتوافد الناس إلى الجامع فى ذلك النهار رجالاً ونساءً خاصة من كان منهم راغباً فى الحصول على بركة بزيارته وكان كارها للجلبة الكبيرة والجموع الغفيرة المحتشدة يوم المولد الواقع فى اليوم التالى مباشرة.

اكتظت الشوارع المحيطة بالجامع فى الليلة التالية بجموع الناس وكان من الصعب جداً المرور فى بعض المناطق. وبعد المغيب ازدانت هذه الشوارع بالمصابيح وفَتَحَتْ بعض المحلات

أبوابها. وصادفت تلك الليلة أيضاً مولد السلطان الصالح الأيوبى المشهور الذى يعتقد أنه من أولياء الله. ويقال إنه كان يرتدى دلكا وأنه كسب لقمة عيشه بصنعة السلال من أوراق الخوص دون اللجوء إلى أموال الخزينة العامة لاستعمالات خاصة. ويقع ضريح الصالح المتاخم للجامع فى سوق النحاسين الذى يشكل جزءاً من الشارع الرئيسى على مسافة قريبة من جامع الحسين. كانت هذه السوق تتلألأ أنواراً وأضواءً كما فتحت معظم المحلات أبوابها، وكان فى كل واحد منها مجموعة من ثلاثة أو أربعة رجال يجلسون مع سيدهم. والجامع وضريح الملك الصالح مهملان على حافة الانهيار والاضمحلال رغم التبجيل العظيم الذى يكنه سكان القاهرة لهذا الملك. ولما دنوت من باب الضريح أحاط بى السقاة والحمالون يتوسلون إلىّ توزيع محتوى «قربه» عن روح الصالح. ثم دخلت المبنى منتعلاً حذائى (وكنت رأيت غيرى يفعل الشىء عينه) ولكننى انتزعته عند عتبة بهو الضريح، والبهو عبارة عن صالة مربعة مقببة، ويتوسطه نصب مستطيل فوق القبر يحيط به حاجز خشبى (المقصورة). ونجد فى أعلى هذه المقصورة أربع شموع كبيرة وثلاث منها مجصصة فى أسفلها وهى تشبه دعامات حجرية مستديرة. والشموع ملونة فى شكل خطوط

حمراء عريضة أفقية كما الخطوط المتعاقبة الحجرية فى الجدران الخارجية فى معظم جوامع القاهرة، وقد تكون مساويةعدداً أصلاً فى الأعلى والأسفل كما فى رأس المقصورة. ويقال إن هذه الشموع أرسلها أحد الباباوات أو أحد الفرنجة إلى الملك الصالح هدية له، ولما كان الصالح ولياً اكتشف دون فحصها أنها محشوة بالبارود، فأمر بوضعها فى الجص، وتذكر رواية أخرى أن هذه الشموع أرسلت كهدية إلى الضريح بعد موت الصالح بسنوات وقد ظهر الملك المتوفى فى منام حارس قبره وأطلعه على مكيدة البارود. وكان بهو الضريح مضاءً بأنوار خافتة يبدو عليه القِدَم والإهمال كما كان البلاط مكشوفاً. وعند دخولى قادنى خادمان إلى كعب المقصورة ولقننى أحدهما الفاتحة والصلاة التى ذكرتها فى حديثى عن احتفالات يوم عاشوراء فى الوقت الذى كان الآخر يرد: «آمين». وطلب منى الخادم الأول تلاوة الفاتحة معها ثانية وأعطانى خمس كرات صغيرة من الخبز من قبر السيد البدوى وحصل مقابلها على نصف قرش. وقام خادم بفتح باب المقصورة لى حتى أدخل - وهذا تكريم عظيم يلزمنى أن أدفع له كذلك مبلغاً زهيداً من المال.

وتابعت جولتى من قبر الصالح إلى جامع الحسين عبر

الشوارع المزدحمة حتى الاختناق (ومع أنها ليست الليلة الكبيرة) والمضاءة بأنوار براقة. ولم ألحظ فرقاً كبيراً فى المشاهد بين جامع الحسين والشوارع. ورأيت فى حشود الجامع الغفيرة أطفالاً يلعبون ويتلاحقون ويصرخون. كما وقع نظرى على جموع الفقهاء يتلون القرآن إضافة إلى حلقة صغيرة من الدراويش وسط الرواق الكبير يؤدون حلقة ذكر. وشققت طريقى بصعوبة وسط هؤلاء إلى القبة وطفت حول الضريح وأبصرت فريقاً متعدد الأشكال والألوان يتلو القرآن. ولما غادرت الجامع بقيت ساعة ونصف ساعة تقريباً أستمع إلى أحد الشعراء فى الشارع.

شهد جامع الحسين وجواره فى اليوم التالى وهو اليوم الأخير والأعظم فى الاحتفال... ازدحاماً أكبر من الأيام التى سبقته. وكانت المصابيح مضاءة فى الليلة التالية وهى ليلة المولد فى كل سوق وأمام باب كل وكالة وحتى أمام أبواب المنازل الخاصة بالمسلمين من أبناء الطبقتين المتوسطة والميسورة فى أرجاء المدينة ودهشت كثيراً من عدد المتسولين فى الشوارع الذين تدفقوا أفواجاً ذلك اليوم يسألون حسنة أو صدقة عن روح «سيدنا الحسين». وضقت ذرعاً وأنا جالس طوال نصف ساعة فى أحد المقاهى الواقعة فى الشارع

الرئيسى فى فترة بعد الظهر بعبارات التوسل مثل: «ربنا يخليك» أو «ربنا يساعدك». ويبدو أن معظم سكان العاصمة نزلوا إلى الشوارع وأن معظم الأتراك المقيمين هنا تجمعوا فى جوار الحسين. ولقد كان اليوم الكبير لزيارة ضريح الحسين، ويعتقدون أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحضر كل هذا النهار وفى الليلة التالية ليشهد زيارات اتباعه الورعين الأتقياء لحفيده! ويفضل معظم كبار الناس التوجه إلى الجامع فى اليوم السابق للاحتفال أو فى أى يوم من أيام الاحتفال باستثناء اليوم الأخير بسبب الازدحام الذى حاولوا التهرب منه. دخلت القبة قبيل المغيب وأخذتنى الدهشة عندما رأيت أن الطريق قد مهدت لى شخصيا للتقدم بكل سهولة نحو الضريح. وقادنى خادم الجامع أمام باب المقصورة ولقننى التلاوات عينها كما فى يوم عاشوراء وأعطانى حفنة من خبز من السيد البدوى مؤلفة من أربع عشرة كرة صغيرة. وما أن تناولت الخبز حتى أحاط بى طالبوا الهدايا فعصرونى عصراً وشدوا علىَّ الخناق فكادت أنفاسى تنقطع. وسألنى الرجل الذى لقننى الصلاة عن هديته (قرش واحد) وطالعنى الآخر بقوله: «لقد تلوت سورة يس لك يا آغا». وقال لى ثالث: «يا أفندى أنا خادم المقصورة» أما الباقون فكانوا المتسولين العاديين، فأدركت عندها لماذا يفضل الأتراك

الذهاب فى يوم آخر. لكن أحد المتسولين وهم أكثرهم وقاحة لحقنى بين الحشود فى الجامع حتى الشارع ومع أنه لم يكن واجباً علىّ إكرامه بأى مبلغ وكنت أعطيت كل ما احتوته جيوبى من مال وأغدقته عليهم أكثر مما هو مفروض. ودعيت للجلوس على مصطبة أحد المحلات المقابلة للجامع لأخلص نفسى من مضايقتهم ولم أر فى الجامع غير جحافل المتسولين رجالاً ونساءً وأطفالاً..

إلى حشود الزوار. واستمر الجامع مكتظاً بالناس واقتصرت الاحتفالات على زيارة الضريح وبعض تلاوات من القرآن إضافة إلى إحياء ذكرين. ولم تشهد الشوارع مثل هذا الاكتظاظ حتى بعد انقضاء منتصف الليل وتلألأت الشوارع بالأضواء فتشعشعت أنوارها وأضفت حياة على المكان. كذلك علقت الشمعدانات فى سوق «الجواهرجية» وأسدلت فوقها أغطية وأضيئت مآذن الجوامع الكبيرة وفتحت العديد من المتاجر أبوابها إضافة إلى المحلات التى تبيع المأكولات والقهوة والشربات. وكان يجلس فى بعضها عدد من الفقهاء يتلون ختمة القرآن وتوزع الشعراء والمحدثون والمغنون فى أماكن مختلفة كما فى الليالى السابقة.

.. وفى مولد "أم هاشم"

يحتفل المصريون منتصف شهر «رجب» (الشهر السابع الهجرى) بمولد «السيدة زينب» وهى ابنة الإمام على (رضى الله عنه) وحفيدة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو يقع دائماً ليلة أربعاء، لكن الاحتفال بهذا المولد يبدأ عادة قبل أسبوعين تقريباً، ويعتبر اليوم الأخير اليوم الأهم فى الاحتفالات والمصادف يوم الثلاثاء، وتجرى هذه الاحتفالات فى جوار الجامع حيث - كما يعتقدون - مدفونة به، فى بناء مزين بشكل مبهرج غير رائع يقع فى الحى الجنوبى الغربى من العاصمة. ويقع الضريح الذى يرتفع فوقة نصب مستطيل مغطى بالحرير المطرز والذى يحيط به حاجز برونزى ذا ظلة خشبية مشابهة لظلة الحسين فى حجرة صغيرة مرتفعة ومقببة فى الجامع ويمكن للزوار الدخول إلى هذه الحجرة بمناسبة المولد للصلاة والطواف حول الضريح. وكنت ذهبت لزيارة الضريح فى يوم الاحتفال الأخير وهو اليوم الكبير. ورأيت فى أحد الشوارع بالقرب من الجامع، العديد من رواة قصص أبى زيد والحواة والقرداتية والراقصين زَيَّنت الأرجوحات والمدومات الشوارع.

وأمليت فى الجامع الصلاة الخاصة بهذه المناسبة بعد الفاتحة وحصلت بالمقابل على كرتين صغيرتين من كرات الخبز المخصصة للسيد البدوى. كان باب السياج المقدس مفتوحاً وعلمت أن النساء وحدهن مسموح لهن بالدخول لاقتصار المقصورة على الحريم. لذا اكتفيت بالطواف الذى كان صعباً إنجازه بسهولة بسبب احتشاد الناس وضيق المكان بين جهات السياج البرونزى الثلاث. وصرخت فى وجهى سيدة تبدو عليها إمارات الاحترام وكانت فى حالة صعبة فى هذا المكان المكتظ، حتى أفسح لها الطريق.....

وتوسل إلى العديدون لاستخدمهم فى تلاوة سورة من القرآن عن روح السيدة وكانوا يسمعوننى عبارات التضرع والدعاء كـ «الله يعطيك ما تشاء»، لأن زوار الأضرحة الأولياء يقصدونها عامة رافعين أدعيتهم بغرض تحقيق أمنية غالية عليهم، وكان بعض المعوزين المكفوفين يفترشون الأرض يسألون صدقة. أما داخل المسجد فرفعت الحصر ولم نعد نشاهد سوى زمرة من المتسكعين المتكاسلين فى المكان. وعند خروجى ضايقنى بعض الحمالين والسقاة بإلحاحهم على حتى أعطيهم مالاً فيوزعون الماء عن روح «إبنة الإمام».

ومن العادات الشائعة توزيع بعض الفضات على خدم

المقصورة والفقيه لتلاوة سورة من القرآن وعلى المتسولين فى الجامع والحماليـن أو السقاة... ويعتبر الذكر من أبرز الإحتفالات التى تقام فى الجامع فى الأمسيات. ويقيم حلقة الذكر كل مساء دراويش طائفة معينة أو عدة طوائف.

فارمان و... "الدوسه" !

كان من أبرز الدبلوماسيين الذين حرصوا على تسجيل انطباعاتهم عن تفاصيل الحياة فى المجتمع المصرى: «البرت فارمان» قنصل عام الولايات المتحدة الأمريكية، الذى أقام بالقاهرة - خمس سنوات - خلال عصر الخديو اسماعيل ونجله الخديو توفيق، وقد دوّن ملاحظاته عن عادات الناس وتقاليدهم المتوارثة من خلال رؤية واقعية - دون جنوح للخيال - على الرغم من اغرائه!.. فيقول عن طقوس الاحتفال بالدوسه ودراويش السعدية:

إن كلمة «الدوسة» تعنى «الخطو» ومعناها الأصلى: الدهس بالأقدام.

وكان الحفل يشتمل على دراويش «السعدية» ممتطين خيولهم فوق عدد كبير من المريدين، هؤلاء الذين ينبطحون أرضاً راقدين على بطونهم ملتصقين ببعضهم.

وقبل ظهيرة الحادى عشر من الشهر يجتمع دراويش الرفاعية، الذين يعتبرون «السعدية» طائفة منهم على مقربة من مسجد الحسين حيث ينضم إليهم آخرون أشد منهم تعصباً ويقيمون حفلا يحضره عدد لا يقل عن عدة آلاف. وكان شيخ

السعديين من الدراويش، بعد تمضية ليلة فى الصيام والطقوس الدينية إستعداداً للقيام بمعجزة النهار، يمتطى صهوة جواده وينضم إلى الموكب، ثم يسير معه حتى يصل إلى المخيم حيث ينتظره عدد كبير من الناس يبلغ الخمسين ألفاً أو يزيد.

وكان على جانب الميدان على يسار المدخل صف طويل من الخيام. وكانت أبعد خيمة من الداخل هى خيمة شيخ الطرق الذى يصدر الأوامر الدينية، ثم يلى ذلك خيمة الخديو التى كان ينزل فيها سمو الخديو توفيق باشا وصحبه. أما الثالثة فكانت خاصة بالدراويش. وأمام هذه الخيام طريق يبلغ اتساعه حوالى ٣٠ قدما قد أعد لمرور المواكب. وقد اصطف الجند أمام هذه الخيام لمنع ضغط الجمهور عليها.

هنالك ينزل المتطوعون المستشهدون فى الساحة العمومية أمام الخيام ومعهم عدد مساو لهم من الدراويش حيث يكون مع كل رجل تابعه. وعندما يصل رئيس كل فرقة أمام خيمة شيخ الدراويش يقف على الفور ثم ينبطح من معه من الرجال البالغ عددهم حوالى ٤٠٠ على الأرض فى شكل زاوية قائمة مع خط سيرهم ورؤوسهم متجهة نحو السرادقات، وقد رقدوا ملاصقين لبعضهم على قدر المستطاع. وكانوا يرتدون ملابسهم العادية وهى زى أفقر الطبقات، ولاشك فى أنهم كانوا يمثلون الطبقة

الدنيا، وهى أشد الطبقات تعصباً. وكانوا يرتدون ملابس فضفاضة مثبتة فى الوسط بحزام أو حبل، عراة الأقدام... والأيدى. ولقد كان الخادم يظل جالساً عند رأس كل منهم أثناء مرور الخيل من موقفهم هذا ويأخذ التنظيم الابتدائى لهؤلاء الرجال حوالى نصف أو ثلاثة أرباع ساعة من وقت وصول الموكب حيث كانوا يرقدون على وجههم وكانت الجند تصد الكتل البشرية المتزاحمة، وكل يريد مكاناً فى المقدمة.

وفى مواجهة ذلك كان يوجد عدد كبير من العربات الخاصة بحرم العائلات وفى مقدمة الصفوف ووراءهم عربات الأجانب والجالية الأجنبية الذين كانوا مضطرين إلى الوقوف على مقاعد عرباتهم ليشاهدوا ما يدور هنالك. وفى وسط هؤلاء وخلفهم كنت ترى جمهرة من الناس لا يستطيعون التقدم إلى الأمام.

إن أجساد المتعبدين عند تجمعهم وانتظامهم فى صعيد واحد تكون طريقاً ملتوياً فيه الشيخ الذى تصل قداسته إلى درجة أن النبى يحمى من الضر هؤلاء الذين انبطحوا على الأرض لكى يطأهم بأرجل جواده! وإذا عرف بطريق الصدفة أن أحدهم قد أصيب فإن ذلك يعزى إلى نقص فى الإيمان.

هذا وعند إعطاء الإشارة، يبدأ الأتباع على طول الخط الممتد والآلاف المحتشدة من المؤمنين يصيحون: «الله، الله -

لا إله إلا الله» وهم يؤكدون ويمدون مقطع الكلمة الأخيرة حتى أنك لا تسمع شيئاً سواها، وفى النهاية كنا نشاهد رجلين قد تحركا جنبا إلى جنب يمشيان على الأجسام وقد حملا الأعلام الخضراء المكللة برؤوس الرماح. وكان يتقدم الشيخ خلفهما مباشرة على جواد مقوداً برجلين حيث يسيران مسرعين على طول الخط بين صيحات الذكر وهى «الله - الله - لا إله إلا الله» تلك الصيحات التى تعالت بالتدريج واختلطت بصيحات الجماهير حتى أصبحت تحاكى الزئير المنقطع النظير، ولقد كان الشيخ رجلاً كبيراً مرتدياً عمامة خضراء وقد لف جسد بعباءة ذات لون بنى فاتح ربطت من وسطها بحزام.

وكان مغمض العينين يتمايل على جواده بحركة تتناسب مع سير ذلك الجواد بشكل يتفق مع حالة هؤلاء الذين يستغرقون فى غيبوبة دينية. ولقد كان يسير يسنده رجلان من الجانبين بأيديهما منعاً له من السقوط. وكان الراقدون على الأرض لا يبدون حراكاً، يقوى من عزيمتهم الابتهالُ بذكر الله!..

وعندما كان يتقدم الشيخ بجواده على طول الخط كانت تصحبه دفعة قوية من الزحام تسد الطريق من خلفه. ولست أدرى هل كان ذلك معداً بواسطة المنظمين أم لم يكن من المستطاع كبح جماح الناس.

ولقد كانت البقعة الممتدة أمام سرادقنا خالية تماماً من الجمهور، وعندما إقترب الجواد كنت قد اتخذت مكاناً على مقربة من التابعين الذين يجلسون عند رءوس الرجال. ولاحظت أن الخيل فى الشرق تسير هادئة تحت أسرجتها. أما هذا الجواد فقد كان حسب عادته متمرناً على الرهونة مبيطراً على النمط الشرقى بحدوة مستديرة تغطى السطح الأسفل لحافره. ولقد مر مسرعاً فى مشيته ذات اليمين وذات اليسار تنزلق أقدامه تارة بين الرجال المنبطحين على الأرض وتارة أخرى تصطدم بأجسادهم وأطرافهم بكل عنف وشدة. وعندما كانت الجماهير تسد عليه الطريق من الخلف كان يصدها المنظمون للحفل حيث ترتد إلى الطريق المجاور لسرادقات الدراويش. وفى أقل من دقيقة لم تكن لترى شخصاً واحداً راقدا على الأرض، وكانت تخفى حقيقة الاصابات عن الناس!

ولقد اندفعت وسط الزحام مسرعاً على أثر مرور الجواد، لأرى لأول وهلة شاباً مصاباً قد قام من بين الراقدين ضاحكاً كأنما كانت ألعوبة لا إصابة وآخر كان محمولا فى حالة إعياء ينزف الدم من أنفه وفمه.

وهذا هو ما أمكننى الحصول عليه من المعلومات وسط هذا الزحام وتلك الجلبة. كما شاهدت أن البعض قد قاموا دون أى

إصابة عدا رجلين لم يقدر أحدهما على إخفاء ما ألمَّ به من جراء جرح أصابه، بينما فقد الآخر قواه وكأنما قد فقد معها الحياة - وظننته أصيب فى عموده الفقرى. ولكن السرعة التى كان الجمهور يتحرك بها لم تتح لى الفرصة لمشاهدة حقيقة هذه الإصابات.

والبعض كان يعتقد أن إنساناً لم يصب فى كل هذه الحركات العنيفة وأن النبى (صلى الله عليه وسلم) هو الذى حفظهم وحماهم عن طريق المعجزة. ولقد كان هذا هو الاعتقاد السائد عند الأغلبية الساحقة من المسلمين. أما الأقلية فقد كانت تعتقد بل وعلى يقين أن عدداً كبيراً يصاب فى كل عام وأن إصابة البعض منهم كانت مميتة. ولقد نشرت إحدى الصحف الأوربية المحلية فى عام ١٨٧٩ أن عدد المصابين من بين هؤلاء المُتعبدين المُنبطحين على الأرض كان حوالى الثلاثمائة وخمسين رجلاً. ولكن هذا كان بلاشك مبالغاً فيه، إذ لم يكن من المستطاع معرفة عدد المصابين حتى على وجه التقريب.

ولقد كانت الأجسام مرصوصة ملتصقة ببعضها بشكل يثير الدهشة، حيث كان الجواد يتحرك فوقها بخطوات واسعة. وكان تقديرى فى ذلك الوقت أنه لا يمس أكثر من واحد من كل ثلاثة أو أربعة أشخاص. وعلى كل فقد كانت النتائج مروعة مما أثبت

أن عملية الدوسة يجب إعتبارها من المعتقدات البربرية والخرافات الدينية التى توارثها هذ الجيل.

ولقد أردت أن أتحقق من عقيدة المسلمين الحقيقية على أثر مشاهدة منظر من هذه المناظر بأن وجهت السؤال إلى «حسن» الذى كان لا يعدله إنسان فى إيمانه، فأخبرنى صراحة بأن ما من إنسان يصاب فى هذه المناسبات، وإنها ضرب من المعجزات حتى أنه لا يشعر بالخوف فى أن يلقى بنفسه أمام الجواد ما دام يعتقد أنه لن يصاب. فقلت له إنك مخطئ فيما تعتقد ورويت له ما شاهدت فجفل بسبب ثقته فيما أقول. ولكننى شاهدت أن عقيدته بالرغم من تأثيرى عليها ما فتئت قوية.

فى اليوم التالى حضر «حسن» وطلب مخاطبتى - وقال إنه قد إلتقى بشيخ كبير من علماء المسلمين يثق فيه تمام الثقة، ولقد أخبروه بأن البعض قد أصيب فى عملية الدوسة كما قتل البعض الآخر وأن الدوسة لم تكن ركناً من أركان الدين الاسلامى. ثم قال إن الدوسه ما هى إلا عملية قديمة لطائفة من الدراويش المتعصبين، تلك العملية التى أضرت بتعاليم الدين الاسلامى. وكان هذا هو رأى الطبقات المتعلمة بما فى ذلك علماء الأزهر - جامعة القاهرة العظيمة - هذا المعهد هو محور التربية الاسلامية والمنبع الرئيسى الذى تصدر منه العقائد

الصحيحة للدين إلى مختلف أنحاء العالم الاسلامى، ومما شاهدته أن معتنقى الدين الاسلامى أكثر عدداً من أى دين آخر وأن عددهم فى ازدياد مستمر.

ولحسن الحظ أن الدوسة أصبحت - على الأقل فى القاهرة - أثراً من آثار التاريخ: تلك المدينة العجيبة سوف ينقصها من الآن فصاعداً إحدى وسائل التسلية، وعلى الذين يشغفون بمشاهدة المناظر الدامية أن يقنعوا أنفسهم بمشاهدة مصارعة الثيران في إسبانيا!

ولقد شاهدت آخر عرض للدوسة بمصر فى شهر فبراير سنة ١٨٨٠ حيث أصدر الخديو أمراً عاجلاً لمشايخ الطرق، الذين يديرون دفة هذه العملية، بإيقافها مع غيرها من العادات الأخرى مثل ابتلاع الثعابين والزجاج، وغرز الإبر والمسامير الكبيرة فى الخدود والأنف والأذرع وفى مختلف أجزاء الجسم، والسير على حد السيوف إلى غير ذلك من أعمال الشعوذة. تلك الأعمال الشائنة التى كانت تشاهد حتى هذا الوقت فى الإحتفالات الدينية التى كانت تعتبر معجزات عند بعض المتعبدين المتعصبين.

ولقد كان الخديو توفيق باشا وأعضاء مجلس وزرائه هم المسئولون عن إلغاء مثل هذه العمليات الشائنة. والحقيقة أن

إيقاف هذه العملية الذى تم دون معارضة جدية كان دليلاً على تقدم الوعى الأخلاقى.

فقد رَغب الخديو فى إلغاء عملية الدوسة مؤيداً فى رغبته هذه من الوزراء وشيخ الإسلام، الذين قرروا بأنه لم ينص عليها فى الدين الإسلامى، كما أنها ضد تعاليم القرآن على خط مستقيم، رغم أن أحداً لم يجرؤ أن يتحمل مسئولية هذا الاجراء المتطرف.

وفى سنة ١٨٨٠ حصلت عدة أحداث ساعدت الخديو توفيق على تحقيق رغبته فى الإلغاء. فقد قضى الله بوفاة الشيخ الأكبر للدراويش وهو الشيخ البكرى، وكذلك الشيخ الذى كان يتقدم الدراويش على جواده، وكلاهما كانا معارضين بشدة لأى تدخل فى التقاليد الدينية القديمة. كما أن الجواد الذى كان يدوس المتعبدين فى عملية الدوسة قد أصابه مرض عضال قبيل الاحتفال بمولد النبى بأيام قلائل - هذه الحوادث المتعاقبة أثبتت صحة تفاؤل الخديو توفيق لزعماء الخرافات الدينية الذين سرعان ما رضخوا دون إبداء أى معارضة لقرار إلغاء الاحتفال بعملية الدوسة.

والواقع أن الأصل فى عملية الدوسة مجهول لدى الجميع. وكل ما سمعته فى القاهرة عن هذه العملية هو ما كانت ترويه الأساطير بأنه فى القرن العاشر من الهجرة منع رجل من رجال

الدين عند عودته من الحج بمكة إلى القاهرة خارج أسوار المدينة بحجة أنه لم يقم بأى دليل يثبت ما له من الكرامة التى تخول له المركز الذى كان يشغله.

وقد قيل حينئذ: إنه إذا كان يستحق المركز الذى هو فيه فليقم دليلاً مظهراً لكرامته وحينما استثارته الاتهامات جمع عدداً كبيراً من الزجاجات ووضعها ملاصقة لبعضها على الأرض ثم امتطى صهوة جواده وسار فوقها دون أن تكسر واحدة منها! ولقد كان من بين المتفرجين على هذه التجربة عدد كبير من النساء اللائى ألقين بأطفالهن أمامه مأخوذات بتلك المعجزة التى يشاهدنها بأعينهن جهاراً فمر بجواده من فوقهم دون إصابة - هناك فتحت له أبواب المدينة!.. وعند دخوله من الأسوار أخذ الناس يلقون بأنفسهم أمامه وهو يسير على أجسامهم بجواده، فلم يصب أحد وتكررت المعجزة بعد ذلك فى كل عام حتى أصبحت ركناً معترفاً به فى الإحتفالات الدينية التى تقام عقب رجوع الحجاج من مكة كل عام. كذلك فإن الاعتقاد السائد عن الدوسة لدى الكثيرين هو أنها استمرار أو تقليد لعادة قديمة يغلب الظن فيها أنها من أصل هندى!...

ما كان لزعيم دينى أن يحصل على شهرة فائقة دون قوة إيمان الجمهور فى قدوته على إتيان المعجزات، ولذا فإن أى إحتفال على شاكلة الدوسة وغيرها من العادات التى كانت

مغروسة فى نفوس الناس، كان يتقبلها الاتباع المتعصبون عن طيب خاطر، أما عن الديانة الإسلامية فهى خير من الوثنية التى حلت محلها. ولا يقل أتباعها فى إعتقاداتهم الخرافية عن عدد كبير من أمثالهم فى الديانة المسيحية، وأهل الشرق فى تمسكهم بهذه العقائد إنما يدلون على تحكم هذه العقائد فيهم.

أما فيما يتعلق بعامل التعصب فهو مشترك بين جميع الأديان ويظهر جلياً عند المسلمين من الدراويش البالغ عددهم الآلاف: فهم نساك ورهبان الشرق - غير أن عدداً بسيطاً من طوائفهم العديدة هو الذى يجعل الدين شاغله الروحانى الوحيد.

والأغلبية فيهم متزوجون، فمنهم الصنّاع والتجّار وصغار المزارعين الذين يساهمون فى الاحتفالات الدينية فى مواعيدها المعروفة لديهم، وعلى الأخص فى يوم الجمعة ومواعيد الأعياد الكبيرة. والبعض منهم يحترف التسول ويتخذ من حضور الاحتفالات الدينية - الجنازات - عملا له - وهم صانعو المعجزات فى المواكب.

وتسمى التدريبات الدينية للدراويش باسم «الذكر» وما هى إلا ابتهال توقيعى متصل إلى الله مصحوباً ببعض الحركات التى تقوم بها الجماعة فى أداء واحد وصوت واحد. ويستمر هذا الذكر ساعات دون انقطاع وفى الغالب لا تزيد مدته على خمس وعشرين دقيقة أو نصف ساعة. كما أن حركة بعض الدراويش كانت تمتاز بالدوران بسرعة وتسمى «الدوامة» أو رقصة

الدراويش. ولقد حازوا درجة التفوق فيها، فهم يدورون على قدمهم الأيسر، ساندين أنفسهم بلمس الأرض بذات اليمين، حيث يقومون بحوالى خمسين أو ستين لفة فى الدقيقة الواحدة مصحوبة بوضع رشيق لكل من الجسد والأذرع.. قلما يفوقه أبرع الراقصين!

وتنحصر حركة بعض الطوائف فى تحريك الرأس من اليمين إلى الشمال أو إلى أسفل وأعلى دلالة على الخشوع والخنوع، وفى بعض الأحيان يقومون بحركة يميلون فيها بأجسامهم إلى الأمام ثم إلى الخلف بقدر ما تستطيع من ميل، يميلون برءوسهم إلى الأمام حتى الركبة ثم يرتدون إلى الوراء حتى تكاد رؤوسهم تلمس الجزء الأسفل من أجسامهم. وتستمر الجماعة على هذه الحركة منادين فى صلاتهم بكلمة «الله الله لا إله إلا الله» ويطلق الأجانب على هؤلاء الدراويش وغيرهم الذين يقومون بأنواع مماثلة من الذكر اسم «الدراويش المولويين».

والبعض منهم يقومون بابتهالاتهم جالسين أو مكبين على صدورهم - والكل يقومون بصلواتهم وقد أغمضوا أعينهم إلى تلك الدرجة التى يفقدون فيها وعيهم بل وتعتريهم حالة من النشوة الدينية. ويجب ألا يستدل من هذا على أن الدراويش ليسوا مخلصين فى عباداتهم، بل هم قوم مؤمنون بالقرآن وأتباع مخلصون للنبى.

بيجمان و "المواليه" !

قضى الباحث الانثروبولوجى البريطانى «نيكولا بيجمان» بمصر نحو ثلاث سنوات ثم زارها عدة مرات، كون من خلالها معرفة طيبة عن طبيعة الشعب المصرى ومعتقداته فى سياق التطور التاريخى الذى تشكلت فيه خصوصيته وملامح وجدانه.. فبهرته ظاهرة الموالد، التى شاهدها بالصدفة أول مرة.. وارتحل مع «المواليه» ليخوض هذا العالم الغريب المدهش.. من خلال تجربته الحية.. فيقول:

« فى ليلة من ليالى صيف عام ١٩٦٥م، وحينما كنت أتجول فى أحد أحياء القاهرة القديمة، فجأة لم أصدق عينى مما رأيت، ففى منتصف شارع ضيق رأيت أربعة أو خمسة رجال يرقصون يدورن بأجسادهم يميناً ويساراً، وكانت هناك إمرأة تغنى يصاحبها ناى وطبول بإيقاع قوى، يختلف تماماً عن الموسيقى العربية التى اعتدت سماعها، وكان الناس يجلسون حولهم في حلقات يشاهدون المنظر ويشربون الشاى، وقتها عثرت على «مولد» لأول مرة وشاهدت لأول مرة «ذكر» أو ما يعنى «الرقص الصوفى».

والاحتفال بموالد، هو إحياء ذكرى ميلاد الأولياء الذين هم في غالبيتهم أموات وربما يتصادف أن يكونوا أحياء أيضاً كما فى حالة مولد الشيخ موسى بالكرنك الذى يقام له مولد كبير فى بداية شهر رجب، بينما كان هذا الشيخ لا يزال حياً، وبالرغم من أن بعض الموالد يجذب إليه نحو مليون زائر فإنه من الممكن أن تعيش فى مصر لعدة سنوات دون أن... ترى واحداً منها أبداً، ويرجع هذا إلى أنهم يميلون إلى إقامة الموالد فى الأحياء الشعبية من المدن أو أماكن نائية على مشارف الصحراء وفى القرى، كما أنها تنعقد لمدة قصيرة تمتد إلى أسبوعين وأحياناً أقل من ذلك، كل مولد منها له موعده الخاص كل عام، ويختفى المولد تماماً فى اليوم التالى «لليلة الكبيرة» دون أن يترك أثراً وللآن من يريد أن يبحث فإنه سرعان ما يتحقق من وجود آلاف من هذه الاحتفالات والتجمعات بكل ما يمكن تخيله من أحجام، ففى مصر ما بين خمسة آلاف قرية ومن الصعب أن تجد قرية دون ضريح أو مقام، ويوجد أكثر من ذلك فى المدن الكبيرة والصغيرة، ومعظم هذه الأضرحة تعتبر مراكز تجمع الموالد لمرة فى العام على الأقل، لذا يمكننا أن نفترض ونحن مطمئنين أنه من الصعب أن تجد يوما فى السنة ليس به مولدا إسلامياً فى مكان ما فى مصر!.

والمولد نفسه هو ما كان يقام فى أوربا العصور الوسطى

كإحتفالات للقديسين، وكانت تتركز حول ضريح القديس، أعداد ضخمة من الحجاج والزوار وتعاملات هائلة ونشاطات دينية وغير دينية مثل زيارة الضريح، التعاملات، التجارة، التسلية، الأكل والشراب والتسول، ولا يمكننا أن نضع حداً فاصلاً أو معقولاً بين العناصر الدينية والمدنية فى المولد، بالرغم من أن لكل مولد شخصيته وسماته المستقلة من هذا الخلط بين النشاطات الدينية والمدنية..

وأصحاب الاحتفال الرئيسيون فى الموالد الإسلامية هم الصوفية أو الدراويش، وهى طرق منظمة على مستوى الأزمة كلها فى ستة وثمانين«طريقة» ولكل منها «خليفة» وكل «طريقة» منها تقوم بزيارة عدد معين من الموالد حسب اختيارها، يحتمل أن يكون المولد منتمياً إلى نفس الطريقة، وهذه القاعدة ليست بالضرورة عامة، بعضهم يزور الموالد القريبة من إقامتهم وبعضهم يزور الموالد التى تقع فى أقاصى البلاد، وهناك يجدون منزلاً أو مسجداً يقيمون فيه أو ينصبون خيمة، وإذا سمح حيز الخيمة أو الدار أو المسجد يؤدون رقصاتهم الطقسية (الذكر) ويستقبلون زوارهم وإن لم يسمح المكان قاموا بذلك فى الشارع المجاور أو إحدى الساحات.

فعلى سبيل المثال، الشيخ زاهر الذى يذهب وأتباعه، ويقضون عدة أيام فى موالد القاهرة الكبار مثل مولد الحسين

والسيدة زينب، أو فى مولد أبو مسلم ومولد أبو خليل، وكلاهما فى إقليم الشرقية، وإلى مولد سيدى عبد الرحيم فى قنا بأعماق صعيد مصر، وبما أنه ينتمى إلى الطريقة الرفاعية فإنه يزور مولد أحمد الرفاعى فى القاهرة وهو أمر بديهى لانتمائه له، وهو يذهب أيضاً إلى مولد أحمد البدوى فى طنطا كما يحاول من وقت لآخر أن يزور ضريح أبو الحسن الشاذلى فى أقصى جنوب شرق البلاد، وبالإضافة إلى ذلك فإنه ينظم مولد جده هو فى قريته «كفر ابراهيم».

ويتردد على الموالد من غير الصوفية والدراويش جماعة يطلق عليهم «المريدون» أو «المحبون» وهم يمكنهم أن يشاركوا فى طقوس «الذكر»، وهناك أيضاً الزوار الذين يرجون بركة الولى (والبركة معناها القوة الخيرة أو التبريكات الفطرية) فعلى سبيل المثال فى أماكن الأولياء والأماكن المقدسة تحل شفاعته مع الله أو الرسول، وكثير من الناس يبحثون ببساطة عن قضاء وقت ممتع، كما أنك تجد كثيراً من المحترفين الذين يكسبون المال فى المولد ببيع الفول السودانى والحلويات، والملابس واللعب وأدوات المائدة أو الذين يهزون المراجيح وأصحاب المراجيح الدوارة أو الذين يعرضون ألعاباً سحرية أو سيركاً، كما يوجد شخص أو أكثر لإجراء عملية الختان، وهو ما يمكن أن يكون مسافراً محترفاً أو حلاقاً محلياً، هؤلاء الذين يرتبون

حياتهم ومعاشهم بالترحال من مولد إلى آخر يعرفون بـ «رجال الموالد» أو «الموالديه».. وتوجد جماعة خاصة من الموالدية هم أولئك الذين وهبوا أنفسهم ليقدموا الماء تسولاً وفى كثير من الموالد يروج تدخين الحشيش وفى بعض الموالد توجد البيره.. لكنك لن تجد أحداً مخموراً ، وهناك فرق كبير بين الجماهير الطيبة الودودة فى مصر وتلك المهرجانات الصاخبة العنيفة فى أوربا ..!

وفى الموالد تجد كل شىء، فمن الممكن القول إن الموالد فى المدن والقرى بقيت واستمرت مع وجود التأثيرات العصرية بما فى ذلك التليفزيون، فهى تستجيب للحاجة الأصيلة عند الناس من الناحيتين الدينية والاجتماعية.

ولكل مولد طابعه المستقل بالنظر إلى موقع وجوده أو طبقاً لتفوق النشاطات الدينية عليه، وغلبة مظهرها، وأعداد الناس الذين يحضرونه، فعلى سبيل المثال، تجد موالد السيدة نفيسة ومولد سيدى على زين العابدين بخاصة وهى موالد تقام فى قلب المقابر، حيث تنصب الخيام بين المقابر لدرجة أن الناس يستخدمون المقابر كمطابخ ويرقصون أحياناً حولها، وهذا يبدو مختلفاً تماماً عن مولد السيدة زينب. أو مولد الحسين أو مولد أحمد البدوى التى تنتشر فى الشوارع والميادين والحوارى الضيقة المجاورة فى المدن، أما مولد سيدى حسن الأنور فترى

مظاهره من خلال نشاطات صوفية محدودة للغاية ولكن له مظهر العيد الشعبى، حيث ترى ثلاثة أو أربع فرق تعزف الموسيقات الدينية وهم على عربات الكارو بينما الناس يحتسون الشاى فى الشارع ويدفعون نقوداً للموسيقيين..

وفى مولد السيدة سكينة ومولد سيدى حسن الأنور تجد جياداً ترقص على أنغام المزمار البلدى، وهى آلة موسيقية تشبه «الأبسوا».. ويجرى ذلك مساء.

أما موالد الريف مثل مولد «أبو مسلم» ومولدُ «أبو المعاطى» فإن المولد يتكون من سرادق ضخم، وفى مولد «أبو خليل» بالزقازيق تجرى الاحتفالات معظمها فى الميادين أمام المسجد الكبير، أما مولد «أحمد البدوى» بطنطا فله جاذبية عظيمة فى مجال الاستعراضات والسيرك، بما فيه فتاة السيرك التى تستعرض على الحبال، وأيضاً نرى به الأسود والنمور.

أما فى «ميت السباع» «عزب وأبو قمصان» فترى الشيخ يمشى فوق أتباعه، ففى «ميت السباع» وموالد صعيد مصر ترى مواكب يتقدمها جمل أو اثنان أو أكثر يحملون «المَحْمَل»، وفى مولد الشيخ «ادريس» بكوم امبو يقام الذكر قبل الظهيرة، أما الضريح الصغير المنسوب إلى الشيخ «منصور» بأسوان فإنه توضع عليه راية خضراء جديدة... ... ...

وأقل شىء يمكن للزائر أن يقبله بالموالد من مضيفه

الدرويش كوبا من الشاى «الثقيل» به كثير من السكر وتضاء ليالى الموالد بمصابيح علقت بأقواس النصر وبعض الزخارف المضيئة الأخرى، وفى هذا الوقت أيضاً يختبر المنشد الذى يرتل أثناء الذكر الميكروفون مردداً الله.. الله.. واحد اتنين ثلاثة أربعة»!.. وهم يميلون لاستخدام مكبرات الصوت هذه ليضمنوا انتشاراً أكبر، والمسافة الزمنية بين كل ذكر وآخر تعد وقتاً قليلاً، ومن المؤسف أنهم يستخدمون تلك المكبرات لأن الموسيقى التى يمكن أن تكون رائعة للغاية كثيراً ما تتشوه ولا يمكن تمييزها بسبب هذه المكبرات!... ... ...

وفى الليلة الكبيرة لمولد السيدة زينب، وبينما كان آذان الفجر قد رُفع، وحانت نهاية آخر طقوس «الذكر» كنت أجلس فى الميدان أتجاذب أطراف الحديث مع بعض مدخنى الحشيش، الذين لا يريدون التوجه إلى بيوتهم حتى هذه الساعة المتأخرة، فوجئنا جميعاً بنافذة تفتح من فوقنا وانهمرت زخات من الحلوى فوق رؤوسنا تصحبها أوراق النقد من فئة «خمسة قروش» كتب على كل ورقة منها بإتقان وباللغة العربية «أجمل التهانى بمولد السيدة الكريمة!».

صور ومشاهد من عالم الموالد

ستظل المظاهر والتقاليد المتوارثة فى الموالد، سواء فى المدن أو القرى، بالرغم من التأثيرات العصرية فى مختلف مجالات الحياة، وستستمر لأنها تلبى حاجة متأصلة عند العامة، وفريق من الخاصة، من الناحيتين الدينية والاجتماعية.

ولكل مولد طابعه المستقل وسماته الخاصة، بالقياس إلى موقعه، وتفوق النشاط الدينى والتجارى والترفيهى، وأعداد الزوار.. و«ظاهرة بارزه» بأحد الموالد، قد تنعدم تماماً فى مولد آخر.

والموالد بصفة عامة، تمثل أهم مناسبات تجديد العلاقة وتوثيقها بين أتباع الطريقة الصوفية، من خلال الولى المحتفى بمولده.. وبعض الأولياء يرتبط الإحتفال بذكرى مولدهم بإحدى الطرق الصوفية.. بينما سلالة أهل البيت وبعض الأولياء يفوق الاهتمام بموالدهم حدود طريقة صوفية معينة.

مولد مولانا الإمام الحسين - رضى الله عنه - هو أشهر موالد القاهرة.. وزيارة ضريحه - فى الأحوال العادية - لها صفة القداسة، حيث يتزاحم الزائرون للطواف حوله ولمس

المقصورة، والقلوب والألسنة لا تنى عن الدعاء والتوسل، ويود كل منهم لو تريث قليلاً، لكن سدنة الضريح يقفون بالمرصاد ولا يسمحون لأحد بالتلكؤ.. إسعى.. إسعى وصلى على النبى!.. ويجد الكثيرون أنفسهم مرغمين على مغادرة الضريح، انتزعت نفوسهم منه انتزاعاً.. فيودعونه قلوبهم ويخرجون بظهورهم ووجوههم تجاه الضريح تأدباً، والمحبون البسطاء يطبعون قبلاتهم على الباب الخشبى وعلى العتبة الرخامية والمقصورة!..

يستمر مولد الإمام الحسين لمدة أسبوع، والليلة الختامية يوم الثلاثاء، ويبدو الجامع كتلة من الأنوار المبهرة ليلاً، وتنتشر السرادقات حوله وفى ساحته والمنطقة المحيطة به، خاصة شارع الباب الأخضر، الفنادق الشعبية محجوزة بكاملها قبيل بدء الاحتفالات، وتظل المطاعم والمقاهى تستقبل روادها طوال ٢٤ ساعة، ومع غروب الشمس، ليس هناك موضع لقدم، ضجيج الميكروفونات يتصاعد من جميع السرادقات، بقراءة القرآن والخطب والإنشاد، تتداخل الأصوات الصاخبة وتتدافع الأجساد المتلاصقة.. حلقات الذكر تنتشر من داخل المسجد إلى ساحته والشوارع الجانبية.. روائح البخور والعطور والشواء تتضوع فى الأجواء، شوادر الحمص والحلوى بأنواعها تشارك بالإعلان عن بضاعتها فى الضجيج العام!... ينتشر باعة الشاى على

الأرصفة، وباعة المسابح والطراطير الملونة ولعب الأطفال.. وبصعوبة تتخلص من إلحاح الجميع!.. خيام الخدمة التى تمثل جميع الطرق الصوفية، تكتظ بفرق الإنشاد والمريدين أو بحلقات الذكر..

وعقب صلاة العصر، من يوم الليلة الختامية، تتوافد مواكب الطرق الصوفية.. أبرزها «زفة الخليفة» أو شيخ السجادة، ممتطياً حصانه يحيط به مريدوه، بين البيارق والرايات التى تميز كل طريقة، وتتم مع التهليل والإنشاد الجميل والزغاريد.. مولد الإمام الحسين - باختصار شديد - هو مهرجان شعبى صاخب بكل ما تعنيه الكلمة من دلالات!

وتكاد تتشابه الصورة بالنسبة لمولد السيدة زينب رضى الله عنها «رئيسة الديوان».. عقيلة بنى هاشم و«أم العواجز».. حيث تمتد السرادقات الصاخبة وحلقات الذكر وخيام الخدمة التى تمثل كل الطرق الصوفية، والأنشطة الترفيهية كالرماية ببنادق الرش «دق الطاره» وألعاب السيرك والمراجيح المتنوعة، من الميدان وشارع الخليج وشارع السد وشارع مراسينا إلى الحوارى المحيطة بالمسجد، ويستغرق مولد السيدة زينب الأسبوع الثالث من شهر رجب.. وصخب الزحام والضجيج فى الليلة الختامية يفوق كل وصف!.

ومشهد لعربات «الكارو» التى تغص بالنساء والأطفال، والبهجة تغمر الجميع فى طريقهم إلى منطقة المقابر.. حيث مولد سيدى «زين العابدين».. وأتذكر موقف شيخ المؤرخين «الجبرتى» الرافض والناقد لما يحدث فى الاحتفالات بموالد الأولياء، واعتبرها من «الحوادث البدعية» خلال حديثه عن: عثمان أغا المتولى أغات مستحفظان، عندما قام بتجديد «مشهد الرأس» والمقصود: رأس زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهم - ويعرف هذا المشهد عند العامة بضريح زين العابدين، ويقصدونه بالزيارة صباح يوم الأحد.. فلما كانت الحوادث ومجئ الفرنسيس، أهملوا ذلك وتخرب المشهد وأهيلت عليه الأتربة، فاجتهد عثمان أغا المذكور، فى تعمير ذلك، فعمره وزخرفه وبيضه وعمل به ستراً وتاجاً ليوضعا على المقام، وأرسل فنادى على - أهل الطرق الشيطانية! - المعروفين بالأشاير وهم السوقة وأرباب الحرف المرذولة، الذين ينسبون أنفسهم لأرباب الضرائح المشهورين كالأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية، وأكد فى حضورهم قبل الجَمْع بأيام، ثم إنهم اجتمعوا فى يوم الأحد خامس عشرينه (رجب ١٢٢٥هـ) بأنواع من الطبول والزمامير والبيارق والأعلام و(الشراميط) والخرق الملونة والمصبغة، ولهم أنواع من

الصياح والنباح والجلبة والصراخ الهائل، حتى ملأوا النواحى والأسواق، وانتظموا وساروا وهم يصيحون ويترددون ويتجاءرون بالصلوات والآيات التى يحرفونها وأنواع التوسلات، ومناداة أشياخهم المنتسبين إليهم بأسمائهم، كقولهم برفع الصوت وضرب الطبلات: يا هو.. يا هو يا جباوى يا بدوى، ويا دسوقى ويا بيومى. ويصحبهم الكثير من الفقهاء والمتعممين والأغا المذكور راكب معهم والستر المصنوع مُركب على أعواد، وعليه العمامة مرفوعة بوسط الستر على خشب، ومتحلقين حوله بالصياح والمقارع، يمنعون أيدى الناس الذين يمدون أيديهم للتمسح والتبرك... ولم يزالوا سائرين على هذا النمط، والخلائق تزداد كثرة حتى وصلوا إلى المشهد خارج البلدة... وصنع فى ذلك اليوم والليلة، أطعمة وأسمطة للمجتمعين وباتوا على ذلك إلى ثانى يوم»!

ومولد «الرمام الشافعى».. يستغرق الأسبوع الثانى من شهر شعبان، ويتخذ مظهر العيد الشعبى، فإلى جانب نشاط الطرق الصوفية الملحوظ، وحلقات الذكر والإنشاد، هناك أيضاً جو من البهجة يشيعه النشاط الترفيهى، كإنارة المسجد وتزيين الضريح بباقات الورود، وتتضوّع روائح العطور والبخور، والمحال والبيوت تأخذ زينتها، وتنتشر سرادقات الإنشاد

والغناء، وألعاب الملاهى والتسلية، وخيام الخدمة تستقبل الزوار بمظاهر من الحفاوة، ودعوة كريمة لتناول الطعام واحتساء الشاى وتدخين المعسل!

وتخبرنا جريدة «الأهرام» فى ديسمبر ١٨٩٥، عن احتفال الطريقة الرفاعية بمولد الإمام الشافعى، حيث «مرّ موكب أرباب الطريقة والأشاير، فى شوارع المدينة، حتى وصل إلى ساحة المولد، وهناك تُتلى القرآن الكريم والأذكار، واستقبل حضرة الحسيب النسيب نقيب السادة الأشراف، الوفود بالبشاشة والإيناس، وبعد سماع الآيات الشريفة، أديرت على الحاضرين أطباق الحلوى وكؤوس المرطبات»

ومولد السيدة «سكينة بنت الحسين» والسيدة «فاطمة النبويه» وسيدى «حسن الأنوار» من الموالد التى تستمر لثلاثة أيام فقط، نشاط الطرق الصوفية بها محدود إلى حد ما.. تميزها فرق الإنشاد المتجولة على عربات الكارو، أو فى حلقات تتلقى «نقوطاً» من المشاهدين، وحلقات لرقص الجياد على أنغام المزمار.. والإمام حسن الأنور، هو والد السيدة نفيسة، كان أعلم أهل عصره، وتولى إمارة المدينة المنورة، فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور.

وتتميز موالد الأولياء بالأقاليم، بغلبة طابع حياة الريف عليها،

على سبيل المثال: مولد «سليم أبو مسلم» ببلبيس، ومولد «أبو المعاطى» و«أبو خليل» بالزقازيق. وسيدى «سالم» بسنتريس منوفية، ومولد «أبو العباس» وسيدى «عمر جعفر» بمركز الباجور، ومولد «الشيخة شلباية» بسبك الضحاك، ومولد «أبو غانم» بمنية سمنود...

وتسهم العائلاتَ الثرية وبعض الهيئات الحكومية فى إقامة السرادقات.. ويتنافس الأثرياء فى نحر الذبائح المنذورة للولى، وإعداد الولائم وتوزيع الصدقات، ويتولى وكلاء المشيخة العامة للطرق الصوفية، الإشراف على الإحتفالات والخدمة..

وقبيل بدء الاحتفال بعدة أيام، نلحظ توافد المريدين ومن اشتهر بلقب «المُوالدية» الذين يهبون أنفسهم لحياة التجوال بين الموالد، تزدحم بهم القرية أو المركز شيئاً فشيئاً، يصطحبون خيامهم وبعض الأغطية البالية ومواقدهم ونساءهم وأطفالهم، وتنتشر المراجيح وعربات القَنْص بالبنادق ودفع الطاره، وسرادقات الملاهى والغوازى والحواه والأراجوز، وأكشاك الحلاقين لإجراء عمليات الختان.. ويبلغ صخب الزحام ذروته – كالمعتاد – فى الليلة الختامية أو «الليلة الكبيرة»!.

وفى الفيوم، يحتفل شعبها بأوليائه فى يوم الإحتفال بالمولد النبوى الشريف، فتزدان الشوارع بأبهى الألوان والأنوار،

وموكب الطرق الصوفية يطوف بكل مقامات الأولياء إلتماساً لبركتهم، وشيوخ السجاجيد، يتصدرون الموكب راكبين الإبل بالجلباب الأبيض والعقال البدوى، تزين صدورهم أوشحة باللون الذى يميز كل طريقة.

ومن الأولياء المشهورين بالفيوم: الشيخ «أبو الحمل» والشيخ «جاد الحق» الذى يُطلَى جدران ضريحه بالحناء!

ويأتى على رأس هؤلاء، سيدى «على الروبى» الذى يحتفل بمولده فى النصف الأول من شعبان، وتنسب إليه كثير من الكرامات، منها أنه تنبأ للسلطان الظاهر برقوق بتولى حكم مصر، وأنه أنقذ المدينة من الدمار - خلال الحرب العالمية الثانية - ببركته التى حولت مسار القنابل إلى بحر يوسف!

وتوهب النذور باسمه، وتنتشر فى ساحة مقامه، خيام الخدمة لتقديم الطعام والشراب، وحلقات الذكر والإنشاد... وسرادقات اللهو والتسلية.. ويتميز مولد الروبى بالإقبال الجماهيرى الضخم من مختلف الطبقات، مسلمين وأقباطاً أيضاً، وتنتشر به ظاهرة ختان الأطفال، وحلق شعر رؤوسهم ثم يؤخذ جزء منه، فيلقى به فى بحر يوسف، والباقى يحتفظ به فى شق جدار من أركان البيت!

وفى إطار الحديث عن مولد «سيدى الروبى».. نجد فى العدد

٣٢ من مجلة «الإسلام» بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩٣٧، رسالة مفتوحة إلى «حضرة صاحب المقام الرفيع وزير الداخلية» من الجمعيات الخيرية الإسلامية وشعبة الإخوان المسلمون بالفيوم، جاء فيها:

«من العادات السيئة التي جرت عليها الموالد، أن تعمر ساحة المولد بالملاهي التي تضم كل أنواع الفسق والفجور، وتؤوى العاهرات اللاتي يحضرن من مختلف الجهات لإفساد الأخلاق وإتيان الأمور المنكرة، سواء في داخل الملهى أو في الطريق العام، مما يتنافى مع الآداب العامة، التي لا تتفق وجلال المحتفى به من الأولياء والصالحين، فضلا عما ينشأ عن ذلك من الإخلال بالأمن، بما إعتاده اللصوص ومعتادو الإجرام في مثل ذلك، وقد فطنت وزارة الداخلية لذلك، فأصدرت تعليماتها بإبطال هذه العادات السيئة، والقضاء عليها من سائر الموالد، وقد ظهر أثر ذلك في المولد النبوى، ومولد سيدنا الحسين، والسيدة زينب رضي الله عنهما، حيث منعت منهما الملاهي منعا باتا، كما أصدرت وزارة الأوقاف منشورا بعدم تأجير أماكن من أملاكها للفجور والملاهي، الأمر الذى تحمد عليه..

لهذا، ولما أوضحناه، تتقدم الجمعيات الخيرية الإسلامية بالفيوم، ملتمسة صدور الأمر الكريم بمنع إقامة الملاهي في الأعوام المقبلة بمولد - الشيخ الروبي - بمدينة الفيوم، وعدم الترخيص من الجهات

الحكومية لأربابها، وعدم تأجير أماكن لهم، سواء كان ذلك ملكا للمجلس البلدى أو لوزارة الأوقاف... حر صا على التمسك بالدين و صيانة للأخلاق والآداب العامة، والأمل كبير أن يكون هذا الإلتماس مو ضع العناية، أدامكم الله لنصرة دينه، وأعانكم على حفظ كرامة الإسلام والمسلمين».

وفى الفيوم، تشتهر أيضاً «الشيخة مريم» التى يُحتفل بمولدها مرة فى يوم شم النسيم!.. والأخرى فى ذكرى مولد النبى، وقد اشتهرت ببركتها فى الشفاء من العقم!

وفى مركز مغاغة بالمنيا، وعلى وجه التحديد بقرية «بنى واللمس» على البحر اليوسفى، إشتهر مقام سيدى «حسن أبو رايتين».. ويزعم أهل القرية المذكورة. أنه كان مدفوناً بقرية «الجرنوس» ثم طار بنعشه ليدفن فى قريتهم!.. ويروى عنه الكثير من الكرامات، ويعتقدون أنه يحرس القرية ويحفظها من السرادقات وعداوات الدم!.. ويلجأون إليه لرفع المظالم وللعلاج من الحالات المرضية المستعصية والرغبة فى الإنجاب!

ويبدأ مولده فى غرة الأول، مع بدء الإحتفال بالمولد النبوى، حيث تنصب أكشاك أو ما يسمى بـ «الفرش» لبيع الحلوى والحمص والفول السودانى والشاى والمأكولات، وألعاب الملاهى والقمار، ويصحب رب كل أسرة أسرته للإقامة بساحة المولد

لعدة أيام، ويخرج سدنة الضريح مع شباب القرية حاملين «بيرق» الشيخ أبو رايتين، يطوفون به أمام كل منازل القرية، فيُخرج لهم أهل كل منزل «العادة» بين قرع الدفوف والطبول.

وفى صعيد مصر، تكثر ظاهرة «الدورة» كتقليد متبع فى موالد الأولياء، حيث يطاف بالكسوة الجديدة للمقام فى موكب صاخب، وتعد من الأحداث الهامة التى يترقبها الجميع بكل الشوق، وتتخذ شكل المَحْمل أو الهودج، حيث توضع الكسوة على قوائم خشبية فوق ظهر جمل، وقد يوضع تحتها مصحف، أو يجلس الخليفة تحتها ويرفع إليه الأطفال ليباركهم، ومئات الأيدى تحاول لمس الكسوة، لنيل شىء من البركة!..

ويشاهد هذا الموكب أو «الدورة» فى مولد «السلطان الفرغل» بأبوتيج، وسيدى «أبو الحجاج الأقصرى» ومولد الشيخ «موسى» بالأقصر، ومولد الشيخ «على» بأسوان، ومولد الإمام «أبو الحسن الشاذلى» بطريق عيذاب.

ويتميز مولد «أبو القمصان» بالقرنة، بطقوس «الدوسة» الفريدة من نوعها، حيث يجلس المريدون القرفصاء فى صف طويل، قابضين بأسنانهم وأيديهم على سكاكين طويلة، ثم يخطو «الشيخ عبد الله» الخليفة، على هذه السكاكين، مستنداً على رجل من كل جانب.. وبعض الدراويش يدخلون سيوفاً وأسياخاً

حديدية فى بطونهم وأفواههم!.. ويعتقد الشيخ عبد الله أن بعض الأولياء يحضرون طقوس الدوسة هذه.. وربما يحضرها أيضاً رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذاته!

ومولد سيدى «ابراهيم الدسوقى» من الموالد الشهيرة التى تُشَدُّ إليها الرحال، وتبدأ الإحتفالات به فى اليوم التالى مباشرة لانتهاء الإحتفالات بمولد السيد البدوى، ويستمر لمدة أسبوع، وتعلن حالة الطوارئ بين كافة الأجهزة الحكومية بمدينة دسوق، فهو بمثابة عيد محلى يشارك فيه الجميع، وتخصص سرادقات لوزارة الأوقاف ومجلس المدينة ونقابة السادة الأشراف ومختلف الطرق الصوفية، وتنتشر بساحة المسجد خيام الخدمة، ويشهد اليوم الختامى - عقب صلاة الجمعة - موكب الخليفة، يطوف بشوارع المدينة بين جموع المريدين والزائرين..

وهذا الموكب قد وصفه أديبنا الكبير الراحل **توفيق الحكيم** فى كتابة: **سجن العمر**.. عندما كان طفلاً أتاه والده بشيخ جميل الصوت، ليعلمه مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن، بقرية أبى مسعود، أى منذ قرابة قرن من الزمان، فيقول: «.. والموكب الذى كان يمر من تحت نوافذنا، يركب الخليفة على حصانه شاهراً سيفه، تحفُّ به البيارق والأعلام والبنادير والرايات

بمختلف الألوان والطبول الكبيرة والمزامير بمختلف الأحجام، ثم عربات النقل الكبيرة، يتلو بعضها البعض فى صف طويل لا ينتهى، تجرها كل أنواع الدواب من خيول وبغال وحمير وبقر وجواميس وثيران، كل عربة تمثّل حرفة من الحرف بكل أدواتها وأهل - الكار - فيها، فالحدادون على عربتهم أمامهم الكور والسندان، يضربون بالمطارق ممثلين عملهم.. ثم يأتى النخارون بالمناشير، والبناؤن بالمسْطَرين، والفخرانية بالقُلل والأباريق، والسمكرية بالكيزان وفوانيس رمضان.. كلهم يمثلون أدوارهم فى الحياة.. حتى الفكهانية لهم عربتهم قد علقوا عليها الأغصان يتدلى منها التفاح والبرتقال.. نوع من كرنفال ساذج، ولكن تأثيره على نفسى فى تلك السن كان عجيباً.. كان شيئاً لا يمكن وصفه»!

زفة المولد فى بور سعيد:

حوالى الرابعة، من يوم السبت ٢٠ أغسطس ١٩٩٤، بدأت شوارع بورسعيد تخرج أثقالها من النساء والأطفال والشباب، فى جماعات أتت من كل صوب، تجاه طريق البحر وميدان الشهداء، مُحمَّلين بأشواقهم والبهجة تغمر كل الوجوه، يشاركهم آلاف المصطافين، فى مشهد احتفالى رائع لا يتكرر إلا مرة

واحدة فى السنة. يكاد يختفى من حياة سكان العاصمة، لكن من الواضح أن سكان الأقاليم وريف مصر، قد حملوا على عاتقهم مسئولية الحفاظ على الظواهر الثقافية المصرية شديدة الخصوصية! باعة الحلوى والحمص وحب العزيز والذرة المشوية وغزل البنات والدندرمه والفشار، إصطفوا بعرباتهم على جانبى الشوارع التى سيمر بها موكب المولد، شعب بورسعيد بمختلف طوائفه، تجمع بحدائق وساحة ميدان الشهداء، والشوارع المؤدية إليه، صخب الزحام يزداد شيئاً فشيئاً..

صعدت إلى أعلى مكان من نافورة رخامية، أمام مجمع محاكم بورسعيد، حتى يمكننى تثبيت هذه اللحظة الزمنية فى بعض الصور التذكارية..

من بعيد.. بدأت تظهر الرايات والبيارق والأعلام فى طريق البحر، فى موكب يتجاوز الأفق، زاحفاً فى بطء تجاه الشرق، خلف مبنى مديرية الأمن وديوان المحافظة، حتى سور قناة السويس، ثم عادت غرباً، من شارع أحمد عرابى إلى ميدان الشهداء.. حيث توقفت فى الساعة السادسة والنصف..

فى مقدمة الزفة: فرقة للأمن المركزى، يليها أربع سيارات مرسيدس بيضاء، تضم عدداً من ضباط الشرطة، ثم عربات

للمطافئ والإسعاف، وفرقة وسيارتان للبحرية.. ثم فرقة الدراويش وطوائف الصوفية، كل طريقة تميزها الأعلام والرايات باللون الذى اشتهرت به، ويتواصل الانشاد الجميع والرقص والزغاريد.. مشهد جميل لأربع نماذج للكعبة محمولة على سيارات، يحيط بها أطفال يرتدون الملابس العربية.. كما تعود كبار التجار بالمدينة المشاركة بسيارات مغطاة بالزهور والورق الملون، فى أشكال زخرفية رائعة يتوسطها إسم «محمد» أو «لا إله إلا الله».. ونماذج ضخمة لعرائس المولد، وكل سيارة تصاحبها فرقة إنشاد مزودة بمكبرات الصوت.. ومحاولات للإمساك برايات الصوفية وتقبيلها إلتماساً للبركة!.. فى الساعة السابعة والنصف، تحركت الزفة، عقب وصول ركب محافظ بورسعيد إلى مسجد «العباس» بشارع محمد على، حيث بدأت مراسم الإحتفال الرسمى بعد أداء صلاة المغرب.

مولد ..

السيدة نفيسة

زيارة أضرحة أهل البيت فى وجدان المصريين - بمختلف طبقاتهم - وأذكر عندما كانت والدتى تصحبنى لزيارة أهل البيت.. أهل الله.. لننال من بركتهم، عرفت معنى هذه الزيارات بمرور السنوات، وتتبعت سيرتهم العطرة، وكانت أكثر الأماكن جذباً لروحى أضرحة السيدة نفيسه والسيده زينب ومولانا الإمام الحسين رضى الله عنهم أجمعين.

ومولد السيدة نفيسة، هو أحد الموالد الكبرى بالقاهرة، يستمر الاحتفال به أسبوعين، وقد بدأ هذا العام فى السابع من أكتوبر، والليلة الختامية في السادس عشر من أكتوبر..

فى الليل، يتحول المسجد والميدان إلى كتلة من الأنوار المبهرة، تنتشر السرادقات حول المسجد والمنطقة المحيطة به وفى الشوارع المؤدية إليه.. جموع عفيرة تحث الخطى، يهصر الشوق قلوبهم، لا ينقطع تدافعهم ولا يستقرون كالموج.. لوحة مليئة بتفاصيل كثيرة تموج بالحركة، تضج بصخب الزحام والألوان الزاعقة، صورة لعالم مصرى حافل، كل من فيها يعلن

عن بضاعته أو يعرض حاله.. ضجيج الميكروفونات يتصاعد من جميع السرادقات، وتتداخل الأصوات بقراءة القرآن والخطب والإنشاد.. حلقات الذكر تنتشر من داخل ساحة المسجد إلى السرادقات والخيام.. خليط مألوف من الدراويش والشحاذين والزائرين والمريدين.. روائح البخور والعطارة والشواء تتضوع فى الأجواء.. **صلى على النبى.. مدد يا ستنا نفيسه.. يا روايح المصطفى.. باعة الشاى على الأر صفة.. والحمص والحلوى والبسبوسة والفول السودانى والترمس وحب العزيز والمسابح وشرائط الكاسيت والطراطير الملونة ولعب الأطفال.. المراجيح وقرب.. جرب.. فتح عينك تاكل ملبن!**

عربات الكارو تتهادى، تحاول أن تشق لنفسها طريقاً بصعوبة، وهى تغص بالأطفال والنساء.. يغنين ويزغردن.. والبهجة تغمر الجميع!.. عربات الكارو تتداخل - فى مشهد طريف - مع أحدث السيارات المرسيدس!.. الأحواش بمنطقة المقابر تستخدم كمطابخ وأماكن للإقامة إلى جانب الخيام المنصوبة بين المقابر.. سرادقات إطعام الزوار.. الفول النابت والأرز والفته وأكوام اللحم المسلوق.. وهنا وهناك.. ترى الأضاحى المنذورة للسيدة نفيسه.. عجول وخراف.. مواكب الطرق الصوفية تتوافد بالبيارق والرايات التى تميز كل طريقة..

فى مهرجان شعبى صاخب!

على دكة خشبية بأحد المقاهى، فى طريق ضيق تظلله بعض الأشجار، من الجهة الجنوبية للمسجد، جلست قليلاً للراحة والتقاط بعض المشاهد.. وبينما أحد المجاذيب يتمتم بجوارى بعبارات غامضة.. فجأة انطلق عدد من الرجال والنساء والشباب – من جميع الإتجاهات – حاملين بأيديهم ما صادفهم فى طريقهم، لنصرة أصحاب المقهى فى معركة غير متكافئة، وبعد ضرب الخصوم ومطاردتهم والتفانى فى «أداء الواجب!» عادوا جميعاً «هؤلاء الأنصار!» يتساءلون فى بساطة شديدة عن سبب «الخناقة»!!

أنوار قلعة صلاح الدين تزيد من تألق قباب ومآذن جامع محمد على، أعلى المقطم، فتضفى على المشهد، والليل جاثم بجناحيه، سحراً وجلالاً..وضعت جسدى بين الجموع المتدافعة، لأجد نفسى داخل المسجد.. أتأمل الزخارف والنقوش والآيات والثريات.. إحساس بشجن غامض كلما اقتربت من الضريح!.. أطباق أنوار تنبعث من الضريح. وعالم منفصل من الصفاء والأنس البديع واللطف الآسر.. شخصيات عامة، وفنانون، وموسرون. وبسطاء طيبون من حولى.. يتشبثون بالمقصورة، يرشقونها بقبلاتهم.. والكل يبث السيدة آلامه..

ويبوح لها بآماله.. راجياً كرامتها وبركاتها.. بينما البعض يتسابقون لأداء ركعتين فى محرابها الذى كانت تتعبد فيه.. وتتباين الأصوات، ما بين المناجاة فى همس، والدعاء المسموع.. المدد يا ستنا يا كريمة.. خد يمينك وصلى ع النبى.. شى لله يا ست نفيسه.. شى لله يا أهل البيت!

رحلة السيدة نفيسة إلى مصر:

رَحَلَتْ السيدة نفيسه مَع زوجها إلى مصر عام ١٩٣هـ/ ٨٠٩ م، واستُقبلت بحفاوة تفوق الوصف من كل المصريين - الذين اشتهروا بحبهم لأهل البيت - وخَصّصَ لها والى مصر: عبيد الله بن السرى بن الحكم، داره بدرب السباع، وكان الناس يحتشدون ببابها يسألونها الدعاء لهم، وعن أمور دينهم.. وسمع الإمام الشافعى منها الحديث، وكان يصلى بها التراويح فى مسجدها فى شهر رمضان، وكان دائماً يسألها الدعاء له..

فى شهر رجب من عام ٢٠٨هـ/ ٨٢٤م، مرضت السيدة نفيسة مرضاً شديداً، شعرت معه بدنو الأجل، فكتبت إلى زوجها، الذى أدرك أنها على وشك الرحيل، وكانت قد إحتفرت قبرها بنفسها فى منزلها، وكثيراً ما كانت تنزل إليه تصلى وتتعبد وأعادت قراءة القرآن كله ١٩٠ مرة.. إلى أن صعدت

روحها إلى بارئها، فى يوم الجمعة الخامس عشر من شهر رمضان.. وتوافد الناس من كل صوب وحدب، وأوقدوا الشموع فى تلك الليلة، وسُمع البكاء والنحيب من كل دار.. ورغب زوجها فى أن تثوى بالبقيع، وحاول شعب مصر والوالى إثناءه عما عزم عليه، بأن تدفن فى مصر، لكنه أبى، فباتوا فى مشقة عظيمة، فلما أصبحوا، إجتمعوا عليه، فوجدوا منه غير ما عهده بالأمس، فقالوا: إن لك لشأناً اليوم، قال: نعم، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرنى أن تدفن عندكم!.. وصلَّى عليها فى مشهد حافل لم يُر مثله.. وتنسب للسيدة نفيسة الكثير من المعجزات والكرامات.

مسجد السيدة نفيسة وعمارته

دُفنت السيدة نفيسة فى نفس المنزل الذى عاشت به خلال إقامتها بمصر، وأول من بنى على قبرها الذى عرف بـ«مشهد السيدة نفيسة» هو عبيد الله بن الحكم والى مصر.. فى عام ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م أمر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بتجديد الضريح، كما أمر الخليفة الحافظ لدين الله بتجديد القبة سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨، وفى سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤ م أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإنشاء مسجد بجوار مشهدها، وبأن

يتولى النظارة على «المشهد النفيس»» الخلفاء العباسيون بالقاهرة، وأول من تولى النظارة الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح بن المستكفى بالله..

وكان للفاطميين مدفن بجوارها من الجهة الغربية، وقد اندثر وذهبت آثاره، وأدخل فى المسجد، وبنى الخلفاء العباسيون مدفناً لهم بجوارها من الجهة الشرقية، وهو باقٍ للآن، ثم أخذ الأمراء وأرباب الدولة والأعيان فى تشييد مدافن بجوار ضريحها للتبرك بها.

فى سنة ١١٧٣هـ/ ١٧٦٠م قام الأمير الجليل عبد الرحمن كتخدا بتجديد الضريح والمسجد ولما أتلف الحريق قسماً كبيراً من المسجد سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م أمر الخديو عباس حلمى الثاني بإعادة بنائه وتجديد الضريح، وتم ذلك فى سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م، كما هو موضح على اللوحة التذكارية أعلى المدخل الرئيسى «أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك خديو مصر عباس حلمى الثانى الأفخم أدام الله أيامه سنة ١٣١٤هـ» وكان عباس قد افتتح المسجد فى ٢٨ صفر ١٣١٤هـ، وأدى فيه شعائر صلاة الجمعة، مع كبار رجال الدولة والأمراء والعلماء..

وقد تمت توسعة المسجد فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢، مع اقتطاع جزء من الميدان

أضيف إلى ساحته الخارجية، خصص به مكان لصلاة السيدات يوم الجمعة، وأقيمت به نافورة رائعة من الرخام على شكل نجمة ثمانية، ومساحات خضراء، كما ألحق بالتوسعة الجديدة، من الجهة الجنوبية، مبنى للمناسبات الإجتماعية، وشكلت عملية التجديد قاعة المشهد والمحراب الذى كانت تصلى فيه، بالرخام والمقرنصات، ويزدان المسجد بالسجاد الفاخر والآيات القرآنية وصور ضخمة للكعبة والمسجد النبوى وضريح السيدة نفيسة، من هدايا الزوار، كما يضم المسجد، مكتبة فيها كتب قيمة، فى علوم التفسير والحديث والفقه والتصوف والتاريخ الإسلامى.

الواجهة الرئيسية يتوسطها للمسجد المدخل، وهو بارز عن سمتها ومرتفع عنها، تغطيه طاقية مقرنصة، وتعلوه منارة رشيقة على الطراز المملوكى، ويؤدى المدخل إلى دركاه نصل منها إلى داخل المسجد، الجزء الذى شيده الخديو عباس، مربع الشكل تقريباً، مسقوف بسقف خشبى منقوش بزخارف عربية جميلة مذهبة، ويعلو منتصف البائكة الثانية «شخشيخة» مرتفعة تزينها شبابيك صغيرة من الجص والزجاج الملون، والسقف محمول على ثلاثة صفوف من العقود المرتكزة على ١٢ عموداً رخامياً مثمنة القطع، تتخللها ٢٤ ثريا، أكبرها التى تتدلى من الشخشيخة، ويتوسط جدار القبلة، محراب مكسو بالقيشانى

الملون، من أجمل المحاريب التى شاهدتها، ويغلب عليه اللون الفيروزى، وعلى جانبيه عمودان صغيران من الرخام، تعلوه الآية: «كلما دخل عليها زكريا المحراب» وإلى اليمين منه منبر خشبى، وإلى أقصى اليمين من جدار القِبلة، باب يؤدى إلى ردهة مسقوفة تتوسطها شخشيخة حليت بنقوش عربية، من سقفها تتدلى ثلاث ثريات كبيرة رائعة، نمر بباب يفتح على سلم يصعد بنا إلى المكتبة، وهذه الردهة تنتهى بمدخل معقود من الرخام، يؤدى إلى الضريح، ويعلو هذا المدخل نقش نصه: «يا مَنْ أتى متوسلاً بنفيسةٍ أبشر بنيلِ القَصْد والإسعاد».. وفى أقصى اليسار من جدار القبلة، باب آخر يفتح على الضريح مباشرة..

وتحيط بالضريح مقصورة نحاسية، تزدان بالآيات القرآنية وباقات الورود، تعلوه قبة ترتكز فوق منطقة الانتقال من المربع إلى الإستداره على أربعة أركان من المقرنصات، ويتوسط الجدار الشرقى لقاعة الضريح المحراب الذى كانت تتعبد فيه السيدة نفيسة..

وتجدر الإشارة إلى قطعة خشبية من مقصورة الضريح، يعود تاريخها إلى العصر الفاطمى، معروضة بمتحف الفن الإسلامى، منقوش عليها: «بسم الله الرحمن الرحيم. رحمة الله

وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد. هذا مشهد السيدة نفيسة إبنة الحسن بن زيد بن أمير المؤمنين الحسن بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليهم أجمعين. توفيت السيدة نفيسه صلوات الله عليها فى شهر رمضان سنة ٢٠٨هـ».

والتوسعة الجديدة للمسجد، مستطيلة الشكل، سقفها محمول أيضاً على ثلاثة صفوف من العقود المرتكزه على ١٨ عموداً من الرخام، وتتدلى ٢٥ ثريا، أكبرها وأجملها التى فى منتصف الإيوان، ويتوسط جدار القبلة، محراب من الرخام، بسيط الزخارف، تعلوه الآية «فنادته الملائكة وهو قائم يصلى بالمحراب».. وهذا المحراب الجديد هو الذى يستقبله الإمام فى صلاة يوم الجمعة، التى يعقبها دائماً «الحضرة النفيسة» الشهيرة، يتسابق أكبر عدد من المصلين لشهودها، حيث تتلى بشكل جماعى: سورة يس ثم سورة الإخلاص أحد عشرة مرة، ثم المعوذتين وفاتحة الكتاب، والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة.. ثم الدعاء بصالح الأعمال وحسن الختام ولسيدتنا صاحبة المقام..!

سيدى أحمد الرفاعى

القُطب الجليل النبيل أبو العباس أحمد بن يحيى بن حازم بن رفاعه - المغربى الشريف - والذى «انتهيت إليه الرياسة فى علوم القوم».. وينتسب إلى سلالة أهل البيت، حيث تضرب عائلته بجذورها حتى الإمامين الحسن والحسين - رضى الله عنهما - وهذا سبب تلقيبه بـ «أبا العلمين»..

ولد الرفاعى عام ٥٠٠هـ بأم عبيده، فى «أرض البطائح» بالعراق، ونشأ بها، ولم يغادرها سوى مرة أخرى واحدة عندما حَجَّ وزار الروضة الشريفة، تفقه على مذهب الإمام الشافعى - رضى الله عنه - ودرس كتاب التنبيه لأبى إسحاق الشيرازى.. ثم سلك طريق التصوف وأخذ نفسه بالمجاهدة، وأعرض عن دنيا الناس، وأقبل على اشتغاله بالحقيقة، وكان مضرب المثل فى تحمل الأذى وسمو الأخلاق.

قال له أحد تلاميذه ذات يوم «سيدى أنت القطب!» فقال الرفاعى: «نزه شيخك عن القطبية!».. فقال له: «وأنت الغوث» فأجابه: «نزه شيخك عن الغوثية!».. ويقول الشعرانى: «فى هذا دليل على أنه تعدى المقامات والأطوار، لأن القطبية والغوثية

مقام معلوم، ومن كان مع الله وبالله فلا يعلم له مقام، وإن كان له فى كل مقام مقام والله أعلم»!

وقال المناوى: «لسيدى أحمد فى الطريق كلام عال..» ومن أقواله رضى الله عنه: «الزهد أول مقامات القاصدين إلى الله تعالى، فمن لم يحكم أساسه فيه، لم يصلح له شىء من بعد فى سائر المقامات».. و«علامة الأنس بالله الوحشة من جميع الخلق إلا الأولياء، فإن الأنس بهم أنس به».. و«أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات»..

وقد تتلمذ عليه خلق كثير، وأحسنوا به الإعتقاد.. توفى فى ١٢ جمادى الأول ٥٧٠ هـ، وكان يوماً مشهوداً، ودفن بقبر الشيخ يحيى البخارى بأم عبيده، ويطلق على أتباعه: الرفاعية، الأحمدية، البطائحية.. وحكيت عنهم أحوال عجيبة!

فى يوم الخميس، الرابع عشر من نوفمبر ١٩٩٦، كان موعدنا مع ختام الإحتفال بمولد سيدى أحمد الرفاعى، موكب شيخ السجادة الرفاعية «الزفة الرفاعية».. عقب صلاة العصر، من أمام مشهد السيدة زينب – رضى الله عنها..

كان الميدان شديد الصخب والزحام، والمشهد العام يعرض لوحة كرنفالية تحتشد بالتفاصيل الكثيرة الحية، تشكيلات لونية من البيارق والأعلام والرايات، وواجهة الجامع تمثل خلفية لها،

المئذنة تسمو برشاقة.. دوى الطبول والدفوف والطاسات والصاجات يكاد يصم الآذان، حلقات ذكر وإنشاد صغيرة.. أصوات متناغمة وأخرى متنافرة!

فى هذه اللحظات، تذكرت أديبنا الجميل الراحل **يحيى حقى** ورائعته الخالدة **قنديل أم هاشم** التى مثلت ذروة حب المصريين لآل البيت وإعتقادهم الموروث في أولياء الله.. وسرحت بخاطرى مع «محسن» فى رائعة **توفيق الحكيم عودة الروح** الذى فشل فى حبه، فلم يجد إلا ضريح السيدة زينب ملاذاً يلجأ إليه، ويتناول بيده قضبان الضريح النحاسية، ويهمس ملهوفاً من صميم قلبه: يا سيده زينب!..

نعود إلى جموع المريدين الذين وفدوا من كل أنحاء مصر، البشر والبهجة تغمر وجوههم، معظمهم يرتدون الجلباب الأبيض يزينه الوشاح الأسود، وعمامة أو طاقية سوداء مطرزة. وصورة لتجمع شعبى، كل من فيها يعلن عن بضاعته وعن حاله: باعة السندوتشات، والبخور والمسابح والاكسسوارات البلاستيكية والملابس الحريمى والأدوات المنزلية ولعب الأطفال والحلوى.. وعجوز سمراء تجلس إلى الأرض، أمامها إناء كبير ملئ بالماء وأكواب مصفوفة يروى بها العطشى ظمأهم، وقد يمنحها البعض قروشاً قليلة فتتقبلها بابتسامة شاكرة.. وأخرى تفترش

«عدة الشاى».. والبعض يستجدى إحساناً فى هذا الوقت المبارك!

ومجذوب انفعل بدق الطبول والدفوف، فدخل إلى حلقة ذكر إزدادت سخونتها، وازداد شهودها، ويتمايل بعنف مع الإيقاع، وتسبح نظراته فى متاهات الغيبوبة، لا تدرى أمن الدوخة أم من الوجد!.. ويخرج الزبد من بين شفتيه.. ثم يخرج هو من جلبابه! ويهم بخلع ما تبقى على جسده، وسرعان ما يمسك به بعض المريدين، يستحلفونه برسول الله وبمقام الست وبسيدى الرفاعى وسيدى على زين العابدين، ويخرجون به من الحلقة!

بعض من نساء الدراويش وأطفالهم يتبركون بالبريق النبوى، الذى طرزت عليه أسماء الله الحسنى، وقد أمسك به أحد الدراويش، ونزل به إلى الساحة الخارجية للمسجد أمام الواجهة الرئيسية للمسجد، وظل فى الهواء إلى أن تلقاه منه درويش آخر..

ومع صوت المؤذن، ران صمت عجيب، تقطعه بعض الهمهمات، ويتدافع الجميع إلى داخل المسجد لأداء صلاة العصر.. وبمجرد الانتهاء منها، عاد الصخب المتناغم مع دق الطبول والدفوف ورقص الدروايش.. ثم بدأ تحرك موكب نواب الطريقة الرفاعية، ولافتة سوداء مطرزة بنسيج مذهب أو باللونين

الأحمر والأبيض، تتقدم كل مجموعة، تعلن عن المنطقة أو المحافظة التى وفدت منها، الموكب يزحف ببطء، والتواجد الأمنى على طول الطريق، وقد توقفت حركة المرور تماماً.. ثم لاح نقيب السادة الأشراف - شيخ الطريقة الرفاعية - على حصان بنى اللون، مرتدياً عباءة عاجية اللون يزينها وشاح أسود عريض، وتعلوه عمامة ضخمة سوداء، يحيط به، فى مستطيل ناقص ضلع، مجموعة من الشباب بزيهم الأبيض والوشاح الأسود.. وقد استلفت نظرى مجئ ركب شيخ الرفاعية فى نهاية الموكب، بينما كان خليفة السيد البدوى يتقدم الموكب..

المشهد فى غاية الجلال والروعة، والحصان يتهادى كخطو العروس، والشريف «أحمد كامل الرفاعى» متألقاً فى هيئته.. ومضى الموكب من أمام مسجد السيدة زينب إلى الميدان مخترقاً شارع بورسعيد (الخليج) ثم يميناً إلى ميدان فاضل باشا ثم شارع أحمد بك عمر، الطويل الضيق، ماراً بميدان الحلمية الجديدة إلى شارع محمد على (القلعة) الجماهير بانتظار الموكب بطول الشارع على الجانبين، والرايات والبيارق تجاوز مد البصر، النوافذ والشرفات تغصُّ تماماً بالسيدات والأطفال.. وتنطلق الزغاريد وتتواصل الأغانى الدينية من خلال

مكبرات الصوت... بعض الأجانب يصورون المشهد بكاميرات الفيديو.. وتنهال قطع الحلوى من الشرفات وبعض المحال على الموكب..

ويدور الموكب حول جامع السلطان حسن من الجهة الغربية إلى ميدان القلعة إلى جامع الرفاعى، ميدان القلعة على اتساعه والشوارع المتفرعة منه، تغصُّ بالناس من مختلف الفئات، وشوادر وخيام الخدمة التى أقامتها مشيخة الطريقة ونوابها من جميع شارع سكة المحجر وشارع السيدة عائشة.. والمريدون فى خيام الخدمة يرحبون بالزائرين، ويدعونهم إلى تناول الطعام والشاى وتدخين المعسل!.. وتتداخل جميع الأصوات فى صخب لا مثيل له.. الذكر والإنشاد فى الخيام، مع أصوات باعة الحمص والحلوى والمشبك والطراطير الملونة، وافترش الأرض باعة الطبول ولعب الأطفال وبائعات الشاى ومع كل واحدة شيشة أو بورى!.. تجاه باب الغرب من سور القلعة، إصطفت ألعاب السيرك، وعشرات المراجيح مختلفة الأشكال والألوان، وعربة عروض الأراجوز وعربات ضرب النشان، ودفع الطاره - وزنها ٧٠ ك - طبقاً للوحة الإرشادية!.. وقد تسابق حول إحداها عدد من ضباط الشرطة!

العارف بالله..
«أبو الحجاج الأقصرى»

هو العارف بالله السيد يوسف بن عبد الرحمن بن غزى بن عيسى الزاهد وينتهى نسبه الشريف إلى الإمام الحسين بن الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - ويكنى «أبى الحجاج الأقصرى»..

ولد بمدينة بغداد، حاضرة الخلافة العباسية، فى منتصف القرن السادس الهجرى، نشأ فى أسرة اشتهرت بالتقوى والورع، وحفظ القرآن فى سن مبكرة، ونال قسطاً من التعليم والثقافة الدينية تحت رعاية والده، ثم امتهن صناعة غزل الصوف وحياكته، حتى نال شهرة العصر، وكان يعقدها كبار الأئمة وأقطاب التصوف، وتفقه بالمدرسة النظامية على مذهب الإمام الشافعى، ونهل من علوم الحديث والشريعة والتصوف..

ورحل أبو الحجاج، وهو على مشارف الأربعين من عمره، إلى مكة المكرمة، بصحبة أنجاله الأربعة وبعض من أهله وصحبه، ثم رحلوا إلى المدينة المنورة، ومنها إلى مصر، حتى

استقر به المقام فى مدينة الأقصر، فى نهاية حكم السلطان صلاح الدين الأيوبى.

ويتوارث أهل صعيد مصر قصته الشهيرة مع الراهبة «تريزة» صاحبة النفوذ والسلطان قبيل مجيئه، وطلبه أن تسمح له بامتلاك قطعة أرض بالمدينة، بمقدار اتساع جلد جمل!.. ومناقب هذا القطب أكثر من أن تحصى، أبرزها أنه استطاع بتأييد من الله تبارك وتعالى، أن يغير وجه الحياة فى هذه المدينة التى كانت أكبر معاقل العبادات الكهنوتية!

مشاهد من مولد أبى الحجاج:

تتوالى الاحتفالات بالمولد فى مدينة وقرى الأقصر، مع نهاية شهر صفر حتى نهاية ربيع الأول، وبشكل متميز يعكس بوضوح الواقع الاجتماعى والاقتصادى للريف فى صعيد مصر، تأكيداً لشخصية كل قرية ونجع.. فأهالى القرنة بالبر الغربى يحتفلون بمولد «الشيخ الطيب».. وأهل المنشأة يحتفلون بمولد الشيخ «على الخلواتى» وأهل الكرنك بمولد «الشيخ موسى» ومولد «أبو الجود» والجواهره بمولد الشيخ «أبو الحلى».. والبعيرات بمولد «أبو القمصان» مولد «أبو زعبوط».. وأهل الزينية والبياضية يحتفلون بمولد سيدى «أحمد بن إدريس» ونجع الخطبا بمولد

الشيخ «أبو العلا».. كذلك يحتفل أهل الكرنك بمولد العارف بالله «يوسف الحجاجى» إمام الطريقة الخلوتية بصعيد مصر.

وفى ذكرى المولد النبوى، تتسابق كل القرى والنجوع فى مظاهر الاحتفالات، فتشيد السرادقات فى الشوارع والميادين، وترتفع رايات وأعلام الصوفية، وتنتشر مكبرات الصوت، ومواكب سيارات الحرفيين المزدانة بالزهور والأعلام، وموكب عربات الحنطور تتهادى بفرحة السائحين ودهشتهم، وما بين زغاريد النساء وأصوات المزمار وأنغام الربابة وشدو المنشدين، تنهال من الشرفات قطع الحلوى والفول السودانى، إحساس بالبهجة والنشوة يغمر الجميع.. وفى المساجد، عقب صلاة العشاء، تتلى آيات القرآن الكريم، وتعقد حلقات الذكر والإنشاد الدينى... بينما يترقب الشباب والأطفال والنساء كل ليلة مرور «الدور» التى يتقدمها الفرسان وحملة الرايات وضاربو الطبول والدفوف.

ومولد سيدى أبى الحجاج تتفاعل فيه مشاعر أهل الصعيد، وتتجلى فيه مظاهر الحفاوة والكرم، وقد جرت العادة على الاحتفالات به ليلة النصف من شعبان حتى أصبح تقليداً هاماً وحدثاً عظيماً.. وأهم ظاهرة فى يوم الاحتفال: تلك المراكب التى يجرها جموع المريدين، بين مظاهر التكبير والتهليل، مما يلقى

بظلاله بما كان يحدث فى المهرجانات الدينية فى عصور الفراعنة، فطبقاً لوثائق مصر القديمة، فى عصر رمسيس الثالث، كانت الاحتفالات تشغل ١٦٢ يوماً من السنة، وكان لمعظم الآلهة عدد من القوارب، التى تلعب دوراً رئيسياً فى طقوس الاحتفالات الدينية، فقارب الإله «يعلو بجماله، ويغرس فيه الحياة المتجددة».. وفى مهرجان «أوبت» كانت المراكب تخرج من معبد الأقصر، فى احتفال دينى مهيب، تتهادى على صفحة النيل بين أدخنة المباخر والصلوات والدعوات، حتى تصل إلى مرسى طريق الكباش، فتحمل إلى قدس الأقداس بمعبد الكرنك، وكان القارب الأكبر للإله «آمون»، ثم واحد لزوجه «موت» والآخر لابنه «خنسو».

ويستمر هذا التقليد المتوارث فى مولد أبى الحجاج، وضريحه داخل معبد الأقصر كما يتماثل هذا التقليد فى مولد سيدى «عبد الرحيم القنائى» أيضاً.. على الرغم من تأكيد أهالى الأقصر على أن هذه القوارب مرتبطة بمجئ أبو الحجاج من مكة، أو بحجه إليها..!

وظاهرة أخرى يتميز بها مولد أبو الحجاج وهى «المرماح».. فعقب صلاة العصر تحتشد الساحة - بجوار معبد الأقصر - بالفرسان من كل القرى والنجوع، وخيولهم ذات السروج

المزركشة، ويبدأ بلعبة «التحطيب» التى يجيدها ويعشقها أهل الصعيد، ثم الاستمتاع برقص الخيول على المزمار والربابة ويستعرض كل فارس مهارته فى الفروسية والرمح بالحصان والإتيان بحركات صعبة، تستحوذ إعجاب المشاهدين، كذلك لعبة «الطردة» وهى مبارزة بالعصى والخيزران من فوق ظهور الجياد ثم يبدأ سباق الخيل ويستمر حتى أذان المغرب.

وتتوالى ليالى الاحتفالات فى دواوين العائلات، وفى السرادقات، وتنحر الذبائح ومظاهر الحفاوة والكرم تشمل جميع الوافدين، ويبرز المنشدون مواهبهم فى مدح الرسول وأهل بيت النبوة، وفى مناقب أولياء الأقصر، وفى سرد القصص الدينية والحنين لأرض الحجاز.

مولد أبو الحسن الشاذلى

كان «القاسم بن يوسف التجيبى السبتى» أول رحالة عربى يسجل زيارته لقبر العارف بالله «أبو الحسن الشاذلى».. وهو فى طريقه إلى الحج، فى رجب سنة ٦٩٦هـ/ مايو ١٢٩٧م.

ويقول التجيبى: «ونزلنا على ماء فى بئر تدعى حميثرا، وبازاء هذه البئر قبر الرجل الصالح، الإمام العارف أبى الحسن الشاذلى، قصد الحج فتوفى بهذا الموضع يرحمه الله.. وأهل القوافل يقصدون هذا القبر للزيارة، ويرون أن الدعاء عنده مستجاب».

كما كتب عنه الرحالة الأشهر «ابن بطوطة».. وبعض الرحالة الأجانب الذين اجتازوا الصحراء الشرقية، مع القرن التاسع عشر، منهم المستشرق السويسرى «بوركهارت» فى عام ١٨١٤، والبريطانى «چون بول» عام ١٩٠٥، والذى وصفه بقوله: «أهم المزارات فى تلك المنطقة، وبالقرب من جبل أبو حماميد، وهو حسن البناء، تعلوه عدة قباب، ويقيم فيه نقيب مغربى، وعربان العبابدة يزورون هذا الضريح سنوياً.

فى عام ١٩٧٢، أهدى الرئيس الراحل السادات مقصورة جديدة للضريح صنعت بدار الكسوة الشريفة بالقاهرة، وفى عام

١٩٧٩، أعدت وزارة الأوقاف مشروعاً لتوسعة الضريح وتجديده، حتى تحول إلى مركز إسلامى هام بالمنطقة الجنوبية الغربية من صحراء البحر الأحمر، وألحقت به مكتبة ضخمة ومعهداً أزهرياً، والإمام الشاذلى، قطب الأولياء، وإمام الأصفياء «الغوث. الجامع الربانى، صاحب الأسرار العلية والحقائق القدسية والأنوار المحمدية، أستاذ الأكابر، والمتفرد فى زمانه بالمعارف السنية والمفاخر» ولد سنة ١٥٥هـ/ ١١٩٧ بقرية «غمارة» بالقرب من مدينة «سبته» على مضيق جبل طارق ثم انتقل إلى مدينة تونس، وتوجه منها إلى بلاد المغرب والمشرق، وحج عدة مرات.

ويقول «مؤمن الشبلنجى» صاحب «نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار» عن الإمام الشاذلى، أنه قدم الاسكندرية من المغرب وصار يلازم ثغرها من الفجر إلى الغروب و.. «كان إذا ركب تمشى أكابر الفقراء والدنيا حوله، وتنشر الأعلام على رأسه، وتضرب الكاسات بين يديه، ويأمر النقيب أن ينادى أمامه: «من أراد القطب الغوث فعليه بالشاذلى».

وكان - رضى الله عنه - يقول «إذ عرضت لك حاجة إلى الله، فأقسم على الله بى» وقال تلميذه أبو العباس المرسى» والله ما ذكرته فى شدة إلا انفرجت ولا فى أمر صعب إلا هان»..

وواظب على حضور مجلسه بالمدرسة الكاملية بالقاهرة،

نخبة من أشهر علماء ذلك العصر: عز الدين بن عبد السلام، ابن الحاجب، إبن دقيق العميد إبن الصلاح، إبن عصفور، وعبد العظيم المنذورى وغيرهم.

وفروع الطريقة الشاذلية، تتجاوز المائة، تحمل فى معظمها أسماء العائلات التى تباشر الدعوة إلى الطريقة، فى المناطق التى نشأت بها، منها البرهامية الشاذلية، القادرية، الطماوية، العقادية، الدندراوية، الناغية، الشبراوية، الخفاجية.. وأشهرها جميعاً» الحامدية الشاذلية «وأكثرهم تنظيماً، ومركزها حى بولاق، بمسجد سيدى «سلامة الراضى» مؤسس الطريقة، وجامع الحامدية الشاذلية بسور نادى الزمالك، هم الأكثر ظهوراً فى مولد «السلطان أبى العلاء».. ومولد «أبو العباس المرسى» بالإسكندرية مع انتشار هائل للطريقة الشاذلية فى كثير من البلاد الإسلامية، خاصة شمال أفريقيا.

فى وقفة عرفات، من كل عام، يتوافد أحباء الشاذلى وأتباعه، من جميع المهن والطبقات، قاصدين مقام الشيخ فى «حميثرا» التى كانت محطة للقوافل على طريق الحج القديم، تكاد تختفى الإبل والحمير، فقد حلّت محلها السيارات بأنواعها، تغص بالأحباب، والأشواق، والذبائح والدقيق والحلوى والكساوى، وتمتلئ الساحة المحيطة بالمسجد وسفح الجبل، بخيام الزائرين، حلقات الذكر تشتد حول الضريح، والأضحية تذبح

على جدرانه، والمقام مغطى بالرسائل التى تحمل الأمانى وطلب الشفاعة، وصوراً شخصية وهدايا، ولوحات قرآنية.

وعلى امتداد الطريق الطويل المؤدى إلى المسجد، تطالعنا على الجانبين، حوانيت صغيرة لبيع الملابس الملونة، وأدوات الزينة، والأدوات المنزلية ولعب الأطفال.. وخيام متناثرة لألعاب الحواة والسيرك..

وأبرز ظاهرة هى: الطواف بكسوة المقام، ويحرص الجميع على شهوده، طيات من الحرير الأخضر، يمسك بأطرافها عدد من شباب المريدين، يطوفون بها أرجاء الساحة، فى موكب صاخب، مرددين كلمات التكبير والتوحيد والصلاة على رسول الله. بينما الكسوة تتماوج فوق الرؤوس، إلى أن يصلوا إلى المقام، وتسلم إلى سدنة الضريح.

مولد سيدى أبو العباس المرسى

هـــو الشيخ الأكبر العارف بالله : أبى العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى " قطب الاسكندرية " ورأس أصحاب ومريدى الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، ولــد بمدينة " مرسية " إحدى المدن الكبرى بشرق الأندلس سنة ٦١٦هـ ، قضى فيها عهد الطفولة والصبا الى أن رحل عنها مع أسرته سنة ٦٤٠ هـ عندما إشتد الاضطهاد المسيحى للمسلمين إبان ضعف دولتهم ، وقد سقطت " مرسية " فى أيدى القشتاليين بعد عام من رحيله عنها ، وفقد أبى العباس والديه اللذين وافتهما المنية غرقاً بشاطىء بونه من افريقية ، وبوصوله الى تونس ، قدر له أن يلتقى بمرشده الروحى الذى كان له أعظم الأثر فى حياته القطب الكبير " أبو الحسن الشاذلى " ، والذى اصطفاه تلميذاً ثم خليفه له ، وقد رافقه أبو العباس فى رحلته الى الاسكندرية سنة ٦٤٢ هـ فى عصر الملك الكامل محمد بـن العادل شقيق الناصر صلاح الدين العظيم ، ولم يكن غريباً أن يختار الشيخان الجليلان ثغر الاسكندرية الـــذى أصبح مركز جذب لعلماء الاندلس والمغرب ، خاصة بعد سقوط " طليطلة " فى يد ألفونسو السادس سنة ٤٧٨هـ.

توفى قطب الاسكندرية أبو العباس المرسى سنة ٦٨٦ هـ ودفن بالجبانه القديمة ازاء رباط الشاطبى خارج بـاب البحر ، وشيد المسجد سنة ٧٠٦ هـ على نفقة شاهبندر تجار الاسكندرية فى ذلك العصر الشيخ " زين الدين بـن القطن " ويشير على باشا مبارك الى أن المسجد كان فى الاصل صغيراً وأن أحـد الحجاج المغاربة قام بتجديده سنة ١١٨٩ هـ الى أن توالت توسعته بأخذ جزء من أرض المقابر وبعض الدور التابعه لوقفه ، وعمارة الجامع الحالية أمر بها الخديو عباس حلمى الثانى ، وتم تجديده فى عهد الملك فؤاد ، وأقيم أمامه " ميدان المساجد " والذى يضم أيضاً : مسجد سيدى ياقوت العرش تلميذ أبى العباس ، ومسجد البوصيرى صاحب البردة ورباط الواسطى ثم مسجد ابن عطاء الله السكندرى .

مولد سيدى ابى العباس المرسى من ايام الاسكندرية المشهودة .. المدينة كلها تشارك فيه وتستمع بـــه .. اهلها .. اقباطها .. زوارها .. ومنهم من وفدوا خصيصا لاجل هذة المناسبة من مختلف بقاع مصر ومـــن البلاد العربية والاسلامية ..

من ميدان المنشية ، مضيت فى طريق مارا بـــ " زنقة الستات " الى شارع فرنسا الشهير .. هكذا هى الاسكندرية دائما : مدينة تبعث على السعادة .. وسيظل السير فى شارع فرنسا كما وصفه " فورستر " مثيرا لبهجة التجوال مساء فى قاع المدينة وبلا هدف .. وهذا الشارع يمثل قلب " الحى التركى " كما كان يطلق عليه .. رائحـــــــة التاريخ تعبق الاجواء ، محال الصاغه وورش ومعارض الموبيليا ومحال الملابس خاصة المستعمله اخذت مكان الحوانيت القديمة وبقايا بيوت تقاوم الزمن .. الى اليسار مسجد " الشوربجى " الذى يعود تاريخ بنائه الـــــى عام ١٧٥٧ م تميزه البساطه فى العمارة والزخارف .. ثم مسجد " طربانة " الذى شيد عام ١٠٦٧ هـــ .

وبالوصول الى شارع راس التين .. تلوح ماذن مسجدى البوصيرى وابى العباس .. ميدان المساجد والمنطقــــه المحيطة به تحول الى كتلة صاخبه من الانوار والالوان والزحـــــام .. واجهات البيوت والشرفات والمحال وعبر الشوارع والماذن والقباب .. تزدان بالاضواء والاعلام والزينات .. طاولات ومقاعد انتظمت على الارصفة وفى حديقة الميدان لتقديم الماكولات والمشروبات المثلجة والساخنه وتدخين الشيشة .. وروائح الشواء تعبق الاجواء .. ابواق السيارات بانواعها وموكب متصل مـــــن باعة الايس كريم وحمص الشـــــــــام والذرة المشوية والترمس والاكسسوارات البسيطة والادوات المنزلية .. مئات المراجيح والملاهى والعاب الاطفال تنتشر فـــى المنطقة خلف مسجد البوصيرى ، وزحام حول مصور فوتوغرافى يقوم بتصوير الاطفال بالزى العربى او بالعباءة والطربوش والشيشة ! .. وهناك من يقومون بـــ " دق الوشم " .. وتصطف فـــــــى شارع راس التين والميدان .. سرادقات الانشاد الدينى وسرادقات الخدمة تستقبل الزائرين بالاضافه الى المسارح الصغيرة المتنقلة الخاصه بالعاب السيرك والاراجوز .. البهجة والفرح العام يمتد الى طريق الكورنيش وشوارع الانفوشى وحى بحرى .. ترام راس التين

الأصفر الدائرى المميز يأتى رشيقاً من محطة الرمل يجلجل بجرسه الى أن يتهادى فى الدوران الشهير أمـــــام المسجد البوصيرى أو " الأباصيرى " بلغة الاسكندرانية .. لم نعد نشاهد الخيام التى كان ينصبها " الموالدية " على الأرصفة وبساحة الميدان .. تدافع وزحام رهيب لدخول الجامـــــــع وزيارة الضريح ومحاولات لمسة لنيل بركة القطب الكبير .. الضريح مغطى بقماش أخضر يزدان بآيات قرآنية مذهبة تعلوه عمامة خضراء ضخمة ، يحيـــط به سور حديدى مشغول يزدان بتابلوهات قرانية وبنسب سيدى ابـــــــى العباس .. الانوار الخضراء والبيضاء .. وانوار ونفحات سماوية تغمر المكان .. وفـــــــى الخارج تتوالى مواكب الطرق الصوفية .. المريدين والدراويش حاملى الاعلام والبيارق والرايات ومجامر البخور .. بينما تدوى الدفوف والطارات النحاسية وطبول جـــلد الجمل .. منشدين فى ايقاعات جميلة .. هادرة .. ويزيد موسم الاصطياف فى شهر اغسطس من صخب الزحام وصخب الألوان .. فى مهرجان الاحتفال بمولد قطب الاسكندرية " المدينة التى تبعث على السعادة دائما " !

هو قطب الصعيد " وأشهر أولياء مصر فى هذا العصر : الشيخ احمد رضوان .. ولد ــ رضى الله عنه ــ بقرية " البغدادى " مركز الاقصر محافظة قنا فـــى الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة ١٣١٣هــ الموافـــق السابع عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٩٥م .

نشأ الشيخ أحمد رضوان فى أسرة شريفة كريمة ينتهى نسبها الى الامام الحسن ــ رضى الله عنه ــ سبط رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حفظ القرآن وتلقى علوم الشريعه فى سن مبكرة ، فى الثانية عشرة من عمره ، اعتزل الناس للمرة الأولى فى إحدى غرف منزل أبيه لنحو شهرين ..

انضم الى الطريقه " الخلوتية " وتأثر كثيراً بالشيخ ابى الوفا الشرقاوى ونخبة من رجال التصرف المشهود لهـم بالفضل والتقوى ، وقد مر الشيخ بثلاثة مراحل مضنية حتى نال درجة " الولاية " .. استغرقت المرحلـــة الاولى نحو أربع سنوات ، لم يعرف فيها طعماً للراحه ، وتميز مزاجه بالتناقض الحاد ، ثم بدأ يحرر ذاته مـــن منطق البشر " كيف " و " لماذا " و .. " أين " ..! ووهب نفسه كامله لمحبة الله والاخلاص فى طاعته ، وتلقـــى اشارات نورانية سمت بروحه ، وفى بعض الحالات كان ينزع عنه ثيابه وأحياناً كان يستطيع التحدث الى الناس ، وأحيانا أخرى لا يتحمل مجرد وجودهم وقضى فى " وجده " فترات طويله واقفاً أو جالساً صامتاً ، ذاهــلاً عما حوله ، باكياً منتحباً ، قليل النوم ، وبدأ بعض العارفين التقرب اليه ، ويقول الشيخ : " بعض الناس يحسبون أن بلوغ مرتبة ــ الولاية ــ أمر يسير ، وهذا خطأ ، فاذا أردت هذة المرتبة ، عليك أن تخضغ نفسك للإختبار ، وتعانى حتى تستمع ، وترضى بالمصائب التى قسمها الله لك " .

وفى المرحلة الثانية ، بدأ يتحدث السريانية ، والمعتقد أنها لغة كبار الاولياء ، وتسمع الشيخ ينادى الاولياء فى جميع أركان الدنيا ، ويتلقى منهم أنباء سرعان ما تتأكد فى الصحف ، وكان يصف أحوال من انتقلوا الى الدار الآخرة .

وفى المرحلة الثالثة عاد الشيخ الى أهله ، وقد استقر طبعه فأنشأ " معهد رضوان " .. وبدأ نشــر حكمته وتعاليمه بين أصدقائه وأتباعه ، وتفسير آيات من القرآن الكريم بطريق " الإلهام " .. قائلاً " اننى أنطق بما يتجلى فى قلبى ولا شيء سوى ذلك " .. وتحلى الشيخ بدراك ثاقب وبصيرة نافذة ، فكان يعرف أسماء الناس ومشاكلهم أو رغباتهم بمجرد دخولهم عليه !

فى أحدى جلساته قال الشيخ : " لقد مر على وقت كنت فيه فى غاية الشوق لرؤية الاولياء ، والآن فاننى أراهم أجمعين ، الذين مازالوا على قيد الحياة ، وأولئك الذين توفاهم الله .. وأقسم بالله أن نصرانياً أصبح اليوم — ولياً — القلب مكروب هذة الايام .. ولن يمكننى أن أذكر لكم كل ما أسمع وأرى .."!

عمل الشيخ أحمد رضوان منذ طفولته بالزراعة على عقيدة أن التصوف الحقيقى هو عطاء و كد .. ثم عمل بالتجارة .. راضيا بما منحه الله من رزق ، حتى كان يبيت الليالى جائعاً تأسياً برسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى أن افاض الله عليه من جوده وفضله ، فما أبقى مدخراً لأهله حيث كانت يداه أسرع بالعطاء والجود ، وكان حريصاً على تناول طعامه مع الفقراء ، لا يفرق بين غنى وفقير فى مجالسه موصياً أولاده " ستظل الساحه عامرة بزوارها ما لم تفرقوا " .

تزوج الشيخ أحمد رضوان مرتين ، الأولى السيدة / زينب ، وهى قرشية ثم السيدة / وهى جعفرية .
وأنجب ذرية صالحه هم : الشيخ محمد أحمد رضوان ، ولد فى الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٩٢٧ ، والشيخ صالح أحمد رضوان : ولد فى السابع عشر من اكتوبر عام ١٩٣٠ ، والشيخ العارف زين العابدين أحمد رضوان ولد فى السادس من ديسمبر عام ١٩٤٧ ثم الشيخ عبدالله أحمد رضوان وولد فى التاسع من نوفمبر عام ١٩٦١ و جميعهم حفظوا القرآن الكريم وشهدوا مجالس والدهم وراقبوا أحواله وحفظوا عنه ، واشتهروا بالصلاح والتقوى وحب الخير والاصلاح بين الناس .. والشيخ زين العابدين " مادح الرسول " ووريث " النور الرضوانى " تخرج من جامعة الأزهر ويعمل بالتجارة تأسياً بجده خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم ..

ورزق الشيخ أحمد رضوان من البنات : زينب ، عائشة ، رقية ، نفيسة وسكينة .

وسيرة الشيخ تزخر بالمعجزات المصنفه تحت اسم " طبيعة الخواطر " وهى نوع من الاخبار بالغيب .. منها أن الشيخ كان مع مريديه على مأدبة غذاء فى قنا ، فاستبدت به حاله عجيبة ، وتوقف الحاضرون وأطرقوا صامتين ، الى أن هدأ الشيخ ثم واصل طعامه ، قائلاً : " إن ابنة الأخ محمود عبدالوهاب ، قد وضعــت مولوداً فى الاسماعلية ، وعانت كثيراً ، فلم أستطع تناول أى شيء حتى يريحها الله مما هى فيه ، والحـــمد لله تيسرت الأمور وتمت الولاده ، وأعطاها الله ولداً " .. ووصــــف المولود وصفاً دقيقاً ، وكان والدها الحاج محمود ، مأذون الناحية حاضراً لتلك المأدبة ، ومن علماء الشريعه المشهود لهم بالتقوى والصلاح ، وبعد ساعات وصلت إلية برقية تهنئة بالمولد " الحفيد " .. !

وفى حالات كثيرة عندما كان الشيخ يرى الرسول فى منامه ، يبادر بإخبار المريض بأنه سيشفى ويبارك الله فى عمره ، وكان من أتباع الشيخ أحد محبية " إسماعيل حسن " قد استبد به القلق واستولى عليه هـــــم كبير بسبب أخيه "هريدى" الذى كان طريح الفراش فى حال خطر بمستشفى الأقصر ، فقال لـــه الشيخ رضوان : " إن لأخيك عشرين عاماً أخرى يحياها ، إذهب وأنبئه بالخبر ، ولا تخشى الناس فيما يقولون .. فالذى يعلــم الاسرار الالهية هو الذى ألهمنى " !.. وحدث بالفعل ما قال به الشيخ !

وتواترت الحكايات عن العلاقة الحميمة التى كانت تربط الشيخ رضوان بالرئيس الراحل جمال عبدالناصر ، وعن اعتقاد الرئيس فى منزلة الشيخ واحتفاءه به ، وتذكر إحدى الروايات ، أن عبدالناصر أرســـل سكرتيره الخاص عام ١٩٦٦ لترتيب زيارة للشيخ ، لكنه ابى أن يأتى عبدالناصر لزيارته قائلاً : " أفضل لو أننى أصبحت الضيف بدلاً من المضيف ، حتى يمكننى أن أسدى اليه النصيحه كاملة دون حرج "!

ويروى " حسن عباس زكى " وزير المالية الأسبق وهو من رجال التصوف المعروفين فى مصر .. قصة لقاء الشيخ احمد رضوان بالزعيم الراحل .. فعندما توالت احباطات الرئيس على الساحه العربية ، نصحـــه حسن

عباس زكى بجلسة مصارحه ومكاشفة للرب الخالق الأعظم .. ما علية سوى استضافة العارف بالله الشيخ أحمد رضوان " قطب الصعيد " واقبل الشيخ على الزيارة مستبشراً وكان اللقاء .. وفى نهايته طلب الرئيس حسن عباس على الهاتف قائلاً : يا حسن .. فى حاجه زعلت الراجل منى ؟ فسأله عما حدث ؟ .. فأخبره الرئيس بأنه قدم للشيخ علبه صدفيه بها بعض النقود فرفضها وغضب ــ مؤكداً أنها من ماله الخاص ــ فوعده حسن عباس باصلاح الأمر .. وذهب الى الشيخ الذى لم يذكر ما حدث .. بل ورحب بزيارة الرئيس مرة أخرى عندما طلب منه ذلك .. ويضيف " استمرت العلاقة بين الرئيس والعارف بالله الشيخ أحمد رضوان ولم أتدخل فى الأمر بعد ذلك .. فقد عرف كل منهما طريقه الى الأخر "!

الساحة الرضوانية :

فى رؤيا مباركة أمر خاتم الأنبياء ــ صلى الله عليه وسلم ــ جد الشيخ أحمد رضوان بالرحيل من " نجع العرب " بأسوان الى " البغدادى " وأطاع الجد الأمر واستقر فى هذا الموضع حيث أقام بيتاً متواضعاً كعادة أهل الصعيد .. وقد استخدمت كمقرأة لحفظ القرآن الكريم لأهل المنطقة .. الى أن شيد الشيخ أحمد رضوان ساحه صغيره من اللبن وجذوع الشجر . اتخذها مجلساً لنشر تعاليم الاسلام .. ثم قام بتوسيعها وشيد بها بعض الحجرات حتى أصبحت مقصداً للناس وللعلماء من مصر والبلاد الاسلاميه .. وبتعليمات من الرئيس جمال عبد الناصر ، قامت وزارة الأوقاف بتنفيذ مشروع ضخم لتوسعة الساحه وإعادة بنائها وألحق بها المسجد والمقام الرضوانى .. وكان افتتاحها يوماً مشهوداً .. تقديراً للبيت الرضوانى وما يقدمه لأحبابه ومريديه من العلم والخدمات الانسانيه والاجتماعية .. وتسع الساحه لاكثر من عشرة آلاف زائر وبها مائدة ممتده تسع لإطعام ألف زائر فى وقت واحد ممن يفدون اليها فى جميع المناسبات الدينية وفى مولد عميد البيت الرضوانى .. وكم شهدت هذة الساحه المباركه من الاعلام وكبار الشخصيات فى مصر والعالم الإسلامى .. وأعظم المقرئين والمنشدين .. وأشهر ما يقدم بها " العدس " العجيب ذو المذاق الخاص جداً كما يؤكد أحباب الشيخ !.. والذى قيل له فى ذلك فأجاب " لقد صنعناه بماء المحبه " !

وتجدر الاشارة الى تكريم جامعة الأزهر للشيخ أحمد رضوان فى اكثر من مناسبة بحضور كبار رجال الدولـــه والعلماء وهيئات التدريس .. فقد حظى الشيخ بتقدير كبار علماء الأزهر مثل الشيخ احمد حسن الباقورى والدكتور عبدالحليم محمود وغيرهم ممن عرفوا قدر الشيخ وفضله وكانوا يسعون لزيارته والتزود مـــــــن فيض علمه واشراقاته .

فى عام ١٩٦٧ ، اشتد المرض بالشيخ فأرسل الرئيس جمال عبدالناصر طائرته الخاصه لنقل الشيخ الـــى القاهرة للعلاج فى المستشفى العسكرى .. ورفض الشيخ دخول المستشفى وفضـــــل النزول بيت " فريد باشا زعلوك " بمصر الجديدة أحد مريدى الشيخ ومحبية .. وتحول البيت الى مجلس يلتقى فيه أحبابه من العلماء وأساتذة الأزهر وكبار الشخصيات .. حتى انتقل الى رحاب الله فى الثالث من ربيع الأول عام ١٣٨٧ هـــ الموافق العاشر مــــن يونيو عام ١٩٦٧ .

مولد السيد البدوى

« .. وهل أحد يجهل سيدى أحمد رضى الله عنه، إنّ أولياء ما وراء البحر المحيط وسائر البلاد والجبال يحضرون مولده»!

هكذا قال الإمام «الشعرانى» بعد أن أشار إلى أطفال الهند الصغار «الذين لا يحلفون إلا ببركة سيدى أحمد رضى الله عنه»!.. ثم أورد رواية شيخه «محمد الشناوى».. أن شخصاً أنكر حضور مولده: «فسلب الإيمان،فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام، فاستغاث بسيدى أحمد رضى عنه، فقال بشرط أن لا تعود، فقال نعم فرد عليه ثوب إيمانه»!.. وأضاف السيد البدوى قولته الشهيرة: «وعزة ربى، ما عصى أحد فى مولدى، إلا وتاب وحسُنت توبته»!!

كما أشار المؤرخ الشيخ «الجبرتى» إلى مولد السيد، باعتباره عيداً سنوياً، يقصده الناس من كل صوب، إبتغاء التجارة والبركة والتسلية! وهذا المهرجان الاحتفالى الضخم، لا يُقَارن به إحتفال بمولد آخر فى مصر عامة، يبدأ الإعداد لهذا المولد الكبير قبل أسابيع من موعده..

ويقول على باشا مبارك عن صاحب «الجواهر السنيه» : إنه

لما توفى السيد البدوى رضى الله عنه «عظموا قبره وبنوا عليه وستروه، وقام بأمر تلامذته من أصحابه الشيخ عبد المتعال فسموه خليفة السيد، وعمر بعده طويلاً نحو سبع وخمسين سنة.. وهو صاحب الثوب الأحمر الذى يلبسه الخليفة فى المولد كل سنة، وهو الذى بنى بمقام سيدى أحمد البدوى المنارة، ورتّب السماط، وشيد أركان البيت وقصده الناس للزيارة من الأقطار البعيدة».

ويضيف على مبارك فى خططه: «.. وسمعت من بعض المشايخ أن أصل عمل ذلك المولد أن أتباع السيد لما سمعوا بوفاته، حضروا بأتباعهم إلى طندتا ليعزّوا فيه خليفته سيدى عبد المتعال، وكانوا كثيرين جداً متفرقين فى البلاد، وكانت طندتا وقتئذ قرية صغيرة لا تسع هذه الجموع، فضربوا خيامهم خارجها حيث يعمل المولد الكبير، وأقاموا فى تلك الخيام ثلاثة أيام، فلما أرادوا الرحيل، شيعهم الشيخ عبد المتعال، فقالوا له: هذه عادة مستمرة نحضر هنا كل عام فى هذا الميعاد إن شاء الله تعالى إلى ما شاء الله، واستمرت هذه العادة فنشأ من ذلك المولد الكبير، وكان فى الأصل ثلاثة أيام ولم يزل يزداد إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن، كما أن منشأ ركوب الخليفة فى آخر المولد هو ركوب الشيخ عبد المتعال لتوديع هؤلاء المشايخ، وأما

منشأ المولد الصغير فهم أن الشيخ الشرنبلالى أحد مشايخ الطائفة الأحمدية حضر للزيارة مع تلامذته وأتباعه، فى غير وقت المولد، فأقام هناك ليالى فى الأذكار والعبادات فاتخذ ذلك عادة كل سنة، لأن عادة أصحاب الطرق أنهم متى وقع لهم شيء مرة اتخذوه عادة، لذا كان هذا المولد يعرف فى أول مرة بالمولد الشرنبلالى، وأما المولد الرجبى فهو منسوب إلى الشيخ الرجبى أحد مشايخ الأحمدية، حيث بدا له أن يجدد العمامة التى على مقام السيد، فاتخذ لها مقداراً كافياً من الشاش المصبوغ باللون الأخضر وحضر به مع جماعته ومريديه ودخلوا طندتا فى موكب من المشايخ والمريدين والفقراء، فصار ذلك يُعرف بمولد لف العمامة، وتجدد فيه العمامة كل عام، فصارت موالده ثلاثة، وقررت مواعيدها بالشهور القبطية، رعاية لأوقات النيل والرى، ولا تتغير مواقيتها إلا بأوامر من الحكومة حسب مقتضيات الصالح..»

وإستعداداً لهذا المولد الكبير «الذى لا يفوقه فى الاحتفال والجمع غير موسم الحج الشريف».. يجتمع فى بداية سبتمبر من كل عام «قيادة المولد الأحمدى» المكون من محافظة الغربية، ومديرى الإدارات الحكومية، وخليفتى السيد البدوى، وشيخ الجامع الأحمدى من أجل تنسيق دور الأجهزة المحلية

فى اتجاهات محددة كتوفير المياه والكهرباء، والحفاظ على الصحة العامة، وتحقيق سيولة المرور، وتشديد الإجراءات الأمنية والالتزام بالآداب العامة، وتصدر «التوجيهات» الرسمية.. وفى النهاية، يظهر المولد وكأنه دون تخطيط أو تعاون فى سنبيل إخراجه، بل يُذكر أن المولد تم بفضل «كرامات» السيد البدوى!

أما الأثرياء من محبى «أهل الطريق» ومشايخ الطرق، فيشرعوا فى الاستعداد للمولد، وتجهيز المؤن اللازمة من لحوم وأرز وشاى وسكر لإطعام الإخوان وعائلاتهم والضيوف.. وإذا لم تملك إحدى الطرق سرادقاً خاصاً بها. فيتم الإتفاق مع محلات «الفراشة» لإعداد سرادق أو خيمة كبيرة، كما يتم ترتيب نقل الأطعمة وكيفية تجهيزها..

النشاط الإقتصادى:

أبرز مظاهر الإعداد للمولد، ما يقوم به تجار طنطا ورجال الأعمال من تجهيز للسرادقات مختلفة الأحجام، وتزيين واجهات المنازل المحيطة بالمسجد الأحمدى، وأقواس من أقمشة السرادقات بألوانها المميزة، تمتد أمام محلات الحلوى إلى عرض الطريق، مزودة جميعها بمكبرات الصوت الصاخبة، التى تعلن عن منتجاتها ومحاولات جذب رواد المولد بشتى الوسائل،

وقيام بعض العاملين التابعين لكل محل بالوقوف في طريق الزوار، ووضع قليلٍ من الحمص الفاخر في أيديهم - تبركاً - مع الوعد بالشراء عقب إتمام الزيارة!

ويستمر ضجيج الميكروفونات، وكأننا في احتفال تنكرى مجنون.. تذيع الأناشيد والمدائح الدينية، هذا بالإضافة إلى ما يقوم له الباعة المتجولون الذين ينصبون مناضد خشبية، عليها أكداس من الحمص والحلوى والسكر النبات، وعلى زائر السيد أن يشترى، كل حسب قدراته، فهى عادة وتقليد مصرى متوارث أن يحمل هذه «البركه» إلى بيته، وأن يُهدى منها إلى الأحبة المقربين، وهذه العادة، هى أصل المثل الشائع «رجع من المولد بلا حمص»!

وأكثر الأطعمة تداولاً فى هذا المولد: الكباب والكفته، والسمك المشوى، طواجن الخضار باللحمة، والفول والفلافل، والكشرى، والسجق، والبطاطا، وكل ذلك يباع فى محلات متخصصة أو على «عربات اليد».. بالإضافة إلى أطنان من أعواد قصب السكر، المكدسة على الأرصفة، والفول السودانى وثمار جوز الهند..

وبالنسبة لسرادقات الصوفية، فإن أبرز الأطعمة هى الثريد أو «الفتة» بلحم الضأن المسلوق، وهى فرصة رائعة لفقراء الريف لإلتهام أكبر قدرٍ من اللحوم!.. بالإضافة إلى الخضراوات

المطهية وسقط الذبائح، والجبن القديم (المش) والبيض والقراقيش..

أما أهم المشروبات، فهى الشاى والمياه الغازية والقهوة والقرفة والكركديه وعصير القصب و«البوظة»!

وبخلاف الأطعمة والأشربة. تنتشر محال بيع الأدوات المنزلية، من النحاس والألومنيوم والبلاستيك، وتجارة لعب الأطفال والطراطير والطُبل والبخور والحلى المقلدة وشرائط المدائح والذكر والعطور زهيدة الثمن والمياه الغازية.. كما يعتبر سكان الريف أن فترة المولد هى خير الأوقات وأنسبها لإجراء ختان الأولاد، و«البركه» تشمل جميع حالات البيع والشراء!

حضور المولد من مظاهر التقوى!

تنازع العلماء أمر «الموالد» بين التحليل والتحريم، والتحفظ والإنكار، فهى ليست من الدين الذى أكمله الله لنا، وتتنافى مع ما أُمرنا بإتباع الرسول فيه، والحق يستدل عليه بالبراهين الشرعية، والموالد «بدعة» لا تخلو من المنكرات والآثام، وعودة إلى مظاهر الوثنية وتقديس الأشخاص!

والبعض يرى فى زيارات الأضرحة وحضور الموالد، أنها من مظاهر التقوى والطاعة، بينما يذهب بعض غلاة المتصوفة إلى

أنها فرض مقدس!

والتخلف عن حضور مولد السيد البدوى، يجلب سخطه وغضبه على مريديه وأتباعه، وتتوارد الحكايات عن أناس تقاعسوا عن حضور المولد، فما كان من السيد البدوى إلا زيارتهم وعتابهم أو عاقبهم!

ويروى عن الإمام «الشعرانى» أنه لم يرغب ذات سنة فى الذهاب إلى المولد، فجاءه السيد البدوى فى المنام:

«.. كان يحمل عصا، جريدة نخل خضراء، يستدعى الناس من كل أنحاء المعمورة، فيتوافدوا من خلفه وعن يمينه وعن شماله، أمم لا تعد ولا تحصى، ومر الموكب أمامى، وسألنى السيد أحمد البدوى: هل ستأتى معنا؟ فأجبت بأنى مريض: فقال: المرض لا يمنع المريد الحق من الحضور، وأرانى حشداً من الأولياء، الأحياء منهم والأموات، جميعهم ذاهب معه إلى المولد، ثم أرانى جمعاً من أمراء الفرنجه، مصفوفين فى الأغلال، زاحفين على أردافهم، فقوى ذلك عزيمتى للذهاب، وقلت له: إن شاء الله سأحضر، فقال: ينبغى أن يكون لديك شىء يؤكد عزمك على المجئ، ثم عيّن علىَّ أسدين يحاكيان الأفيال ضخامة وقتامة، قائلاً لهما: لا تدعانه حتى تُسْلِمانه»!

وهذه القصة، ليست فقط حجة في حضور المولد، حتى

لأمراء الفرنجة الأذلاء المقيدين فى الأصفاد، وإنما يمكن إعتبارها أيضا «دعاية طيبة» لإظهار تفوق الطريقة الأحمدية على نظائرها، وما للسيد البدوى من تأثير عظيم ومكانة رفيعة، تجعل سائر الأولياء يحتشدون لشهود مولده!

ساحة الجامع الأحمدى:

ضريح السيد البدوى ومسجده، يشهدان نشاطاً مكثفاً قبل المولد وخلاله، فتزين ساحة الجامع والميدان بأعلام ورايات الطرق الصوفية، والسرادقات الضخمة، وتعقد حلقات الذكر عقب صلاة العشاء، وطوفان الزوار لا ينقطع وحركتهم الهادرة لا تهدأ.. رجال ونساء وأطفال يتدافعون نحو ضريح السيد وصيحات يتجاوب معها الجميع: «مدد يا شيخ العرب.. يا سيد» و«إسعى وصلى ع النبى» و«المدد.. يا أهل المدد» و«شى الله يا سيد.. نظره»! ومنهم من يتشبث بالضريح، معانقاً ومقبلاً، ومن لم يستطع الوصول إليه يقف ملوحاً بيديه، متمتماً بالدعاء وقراءة الفاتحة. ومنهم من يخر مقبّلاً عتبات الضريح، ومن الرجال من يخلع شاله ويربطه فى المقصورة، والبعض يكتفى بلمس المقصورة ثم يمسح بيديه على وجهه وصدره، والجميع فى حالة من النشوة والوجد!

ويحظى الحجر الموضوع فى الركن الشمالى الشرقى، باهتمام الزوار، فالجميع يحاولون لمسه جلباً للبركة، وهو من الصخر وعليه آثار قدم غائرة يقال إنها قدم النبى!

وفى الليالى الأخيرة للمولد، يصل الزحام إلى ذروته، داخل الجامع والساحة والميدان والشوارع المحيطة به، ومحاولة النفاذ إلى الضريح بين هذه الأمواج البشرية الهائلة هو ضرب من المستحيل!

آلاف من عائلات المريدين والمحبين، إفترشت الأرض بالبطاطين ومفارش قديمة وحُصر وسلال الطعام ومواقد الكيروسين وبرادات الشاى. والمساجد المجاورة فتحت أبوابها لـ «ضيوف السيد».. والحى العتيق يغصّ بالزوار، فى الشوارع الضيقة والأزقة والحارات، وفى بعض الأحيان، يتخذ بعض الزوار، مجرد ساتر من الأقمشة، مثبّت على قوائم خشبية خفيفة، والبعض يفترش حصيره ويلتحف ببطانية، ويجلسون عائلات ومجموعات يحتسون الشاى ويدخنون الجوزة أو الشيشة، بينما تنتشر حلقات الذكر فى كل ركن، وبعض الزوار يقيمون فى مساكن أقاربهم أو أصدقائهم، وكبار التجار يستضيفون أثرياء الريف، الذين يأتون ومعهم الخيرات من خراف نذرت لمولد السيد، وفواكه وغلال، وقد يدعون بعض

الفقراء فى ولائمهم ليشاركون طيبات ما رزقهم الله، وفى شارع البحر، قلب المدينة، منتزه كبير خُصص جزء منه لتقديم عروض السيرك القومى، ومعرض صناعى تجارى، ومسرح لـ... ـيم عروض الفرق الفنية الإقليمية، عن الحياة فى مصر زمن السيد البدوى، أو تتناول سيرته الذاتية بإعتباره رائداً وطنياً!

ويروى أيضاً أن جميع الأولياء، فى تلك الليلة، يجتمعون حول هذا السارى، مشاركين الأتباع والأحبة فى حلقات الذكر، لتشمل البركة الجميع!

وأكبر السرادقات فى الساحة هو المخصص لمديرية أوقاف الغربية، وفيه تتم مراسم ختام المولد فى الليلة الكبيرة، ويبلغ عدد الطرق الأحمدية إثنين وعشرين طريقة، أربعة عشر طريقة منها هى المعترف بها من المجلس الأعلى للطرق الصوفية، وهى التى يخصص لها «خيام الخدمة».. وهذا لا يمنع باقى الطرق الأحمدية - التى هى أشبه بمجموعات أو روابط صوفية محلية من تقديم الخدمات تجاه «الأخوة» والضيوف.

«شيخ السجادة» يتصدر السرادق، جالساً على كرسى وثير نسبياً، يحيط به نوابه، مشاهداً وموجهاً للذكر الذى يؤدى أمامه، مستقبلاً لوفود الأتباع والمريدين، يتقدمون فرادى لتحيته وتقبيل يده، والبعض يقدم إليه هدايا رمزية مثل الهبات المالية

وزجاجات العطر وخراطيش السجاير، وقد يأتى بعض المريدين بأصدقائهم ليعرفوهم بالشيخ، وهى مناسبة لتجديد العهد، وتتيح للمريد أن يلتقى بشيخ الطريقة وينال البركة، وجهاً لوجه ويداً بيد، دون وساطة نائب الطريقة، وعلى حسب مقدار الحفاوة وكرم الضيافة، يمكن جذب وضم أعضاء جدد، ولابد أن يتمتع شيخ السجادة بسمات الرهبة وقوة النفاذ إلى قلوب أتباعه، وليس لأحدهم أن يرفع رأسه أو يتحرك دون إشارة من الشيخ، المرشح أن يدفن عقب موته كـ «ولى» ويصبح قبره مزاراً، وينشر بركاته على أنحاء قريته وما يجاورها، وتُروى عن كراماته الأساطير!

المولد فى "سيجر":

وهى منطقة مفتوحة تفصل بين المدينة والقرى، تضم مساكن خاصة وأملاك لوزارة الأوقاف، مخصصة للسيد البدوى، ويشق المنطقة الزراعية، طريق ترابى يربط الريف بمدينة طنطا، طوله نحو نصف الكيلومتر، يحتله طوال المولد: الباعة المتجولون يعرضون الحمص والحلوى ولعب الأطفال، وألعاب الحظ والرماية وعروض الألعاب السحرية، وفرق الإنشاد الدينى، واستعراضات راكبى الدراجات البخارية، وللأطفال المراجيح

وصندوق الدنيا، وباعة الأطعمة، السلال، والأوانى الفخارية، والمصنوعات الجلدية والحلى المقلدة، وبعض الباعة من نفس المنطقة أو ما حولها، والآخرون أتوا من أقاصى الصعيد وبعض محافظات الدلتا، وعندما ينفضُّ المولد، يشدون الرحال إلى دسوق ومولد سيدى إبراهيم الدسوقى! وإلى الغرب من طريق سيجر، أرض زراعية يطلق عليها الساحة أو الملأه، ومع بداية الأسبوع الثانى للمولد، تحاط بالسرادقات الضخمة، المزينة بالأعلام والبيارق، وفى بعضها ساتر من قماش الخيام، يفصلها إلى قسمين، ويخصص قسم منه للنساء وإعداد الطعام، وتزود بمصابيح كهربائية ومكبرات للصوت، وتقوم البلدية بتجهيز المولدات الكهربائية الضخمة المتنقلة، بالإضافة إلى الخيام الصغيرة، التى تُنصب كل عام فى نفس المكان، بحكم «العادة» مرتبة على هيئة مربع ناقص ضلع، فى مواجهة الشرق، وينصب أمامها «سارى» السيد البدوى، الذى تروى عنه حكايات، منها أن النبى - صلى الله عليه وسلم - والسيد البدوى يزوران الساحة، فى الليلة الختامية للمولد، ويشاركون المريدين فى أذكارهم، فيهتز السارى وينحنى في تلك اللحظات!

موكب الشناوية أو "ركبة الحمارة"!

فى اليوم الأخير من المولد، عقب صلاة العصر من يوم الخميس، يبدأ الموكب من أمام الجامع الأحمدى، يقوده خليفة السيد البدوى ممتطياً جواده، وسط مجموعة من ضاربى الدفوف على ظهور الجمال، وفرقة حرس شرف عسكرية، ومجموعات من الطرق الأحمدية، حاملة الأعلام والبيارق، متجهين جميعاً إلى جسر سمنود، حيث موقع المدخل القديم لمدينة طنطا، وهناك ينتظرون وفد الطريقة الشناوية، القادم لتحية وفد الخليفة..

وهذا اللقاء، أصبح تقليداً متبعاً لإحياء ذكرى حدث قديم، فقد عزم مؤسس الطريقة الشناوية الشيخ «محمد الشناوى» على السفر إلى طنطا، وإعلان ولائه لسيدى «عبد العال» أو خليفة للسيد البدوى، فامتطى حماره فى سفره هذا، وفى كل عام، يقود خليفة الشناوية موكبهم، فيطوف بقرى طنطا أولاً ثم يتجه إلى مكان اللقاء، وعندما يظهر خليفة السيد البدوى، يبادر خليفة الشناوية فيخلع عمامته تقديراً وتوقيراً، حيث تواترت الحكايات بأن الشيخ محمد الشناوى قد فعل ذلك، ويصطحب خليفة البدوى، خليفة الشناوى، لأداء صلاة المغرب بالجامع الأحمدى، ثم زيارة ضريح السيد البدوى.

موكب الخليفة:

فى اليوم الثانى - الجمعة - يكون الموعد مع أهم أحداث وختام هذا المهرجان السنوى، فعقب أداء صلاة الجمعة، تحتشد الشوارع والميادين والشرفات وأسطح المنازل، بالزوار وأهالى طنطا، فى أضخم تجمع شعبى بالمدينة، على مدار العام، لمشاهدة «زفة» أو موكب الخليفة السيد البدوى، ويبدأ من أمام مسجد «محمد البهى» حيث الخليفة يؤدى صلاة الجمعة، سيارات نصف نقل تابعة للمحافظة و«قيادة المولد الأحمدى» مزدانة بالورود واللافتات، تنتظر بالقرب من مدخل المسجد، وما أن يهل الخليفة من الداخل، حتى يندفع إليه الآلاف من الزوار والمريدون يلتمسون بركته.. فيختلطون بفرقة من الخياله والأمن المركزى، وبصعوبة شديدة يمتطى حصانا مسرجاً، بنى اللون بغرة بيضاء، الخليفة فى أبهى زينة، مرتدياً عمامة السيد البدوى البيضاء، والعباءة الحمراء لسيدى عبد العال، ثم تبع الخليفة جملين تزينهما سروج باللونين الأحمر والذهبى، عليهما غلامان يرتديان الجلباب الأبيض يقرعان طبولا نحاسية ضخمة، ويتحرك الموكب وئيداً، يتقدمه فرقة من الفرسان، وقائد الموكب برتبة «عميد» على دراجة بخارية، وفرقة من المشاة والأمن المركزى، سيارات مزدانة تحمل طوائف الحرفيين، وجماعات

الصوفية وعلى رأسهم «الرفاعية» بالرايات والأعلام السوداء و«القادرية» بالرايات الخضراء، بما يُفسَر على أنه تأكيد للعلاقة التاريخية التى تربط السيد البدوى بأقطاب العراق..

ويخترق الموكب شارع السوق المواجه لمسجد البهى.. ويمضى وسط موجات هستيرية من الفرح والبهجة الطاغية، ويتسابق الجميع للحاق بركب الخليفة من شارع إلى شارع، وينتظم الموكب بشارع «الجمهورية».. شرفات المساكن تغص بالمشاهدين، يلقون بالملح والحمص على الموكب، شباب يستعرضون مهاراتهم فى اللعب بالسنج والسيوف!.. وعجوز مجذوبة بجلباب أبيض تندفع إلى مقدمة الموكب، فلا يعترضها أحد، وتمضى متواجدة فرحة تتمايل منشدة، ومابين زغاريد النساء والصياح والغناء والإنشاد، وراقصى التنورة وحاملى البيارق وقارعى الطبول والدفوف والصاجات.. يعم ضجيج مُبهج.. فى مشهد كله فرحة غامرة، ينتظره الجميع - بكل الشوق - فى العام التالى..!

لمحات من سيرة
القطب الإمام الشعرانى

ولد الإمام عبد الوهاب الشعرانى عام ١٤٩١م بقرية «أبى شعره» بالمنوفية، وينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب – رضى الله عنه – وعاش وتوفى بالقاهرة عام ١٥٦٥، وينسب إلى إسمه حى باب الشعرية، تتلمذ على يد سيدى «على الخواص».. وكانت له مكانة مرموقة فى زمانه، اشتهر بغزارة التأليف فى التصوف وعلوم القرآن والفقه والنحو والطب..

أشهر مؤلفاته: «طبقات الصوفية»، «البحر المورود»، «الجوهر المصون والسر المرقوم» و«لطائف المنن والأخلاق».. وهذا الكتاب قدم فيه فكر المتصوفة بلا أقنعة!. وقد أراد من خلاله «أن يعرف الكافة كيف يسلك المؤمن الطريق»!

ويعد هذا الكتاب «لطائف المنن والأخلاق» سيرة ذاتية للشعرانى، من خلالها نستطيع أن نحدد ملامح شخصيته وفكره.. فيقول: «إن المعارف لا تسلب، دائما تسلب الأحوال بسرعة استمالتها من حال إلى حال، فهى كالثوب الذى يخلع ويلبس، والمعارف كالذوات لا يدخل فيها محو ولا إثبات..

فطريق التصوف، طريق علم وعمل، والكامل إذا بلغ مقام الكمال في العرفان، صار غريباً في الأكوان، وقد صرحت في كتاب بأمور كان الأولى كتمانها، لولا الأمر لي بإظهارها»!!

وبعد أن سلك في الطريق، واجتاز عدة مقامات، إلى أن بلغ مقام الزهد: «صار عندي الذهب والتراب سواء من غير ترجيح، وبعد أن أحكمت هذا المقام، رجحت الذهب على التراب، عملاً بما جعله الله تعالى فيه من الحكمة»!

ثم يحدثنا عن إحساسه بمشاركة جميع المسلمين في مصائبهم والمحن التي تلم بهم، حتى أنه شارك المعاقين في بيت الوالي و«المرأة إحساسها حال طلقها وولادتها»! وهو يكتب سيرته عارضاً مجاهداته في سلوك الطريق، ليقتدي به مريدوه «لبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيمان نحو سنتين، وأكلت التراب لمّا فقدت الحلال نحو شهرين، ونفرت من جميع الناس ونفروا مني، فكنت أقيم في المساجد المهجورة والأبراج الخربة، وسياحتي في الجبال والبراري، حتى قطعت براري لا أظن أحداً من أقراني يعرفها، ثم حبب الله إليّ جبل المقطم، ثم المساجد المهجورة في القرافة ثم الخرايب في مصر.. ذلك لأن الأنس بالخلق حجاب عظيم، فلابد من قطع هذا الحجاب إما لمجاهدة وإما بمزية إلهيه، وضعفت بشريتي، وقويت روحانيتي،

حتى كنت أصعد بالسرعة فى الهواء إلى الصارى المنصوب فى الجامع، فأجلس عليه فى الليل والناس نائمون، ثم نزلت من السلم إلى الجامع، أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى، وطلبها الصعود إلى عالمها..»!

ويقول الشعرانى: «ومن مِنَنْ الله علىّ، زهدى فى المطاعم والملابس والنساء والفرش الوطيئة، وكثرة الروائح الطيْبة الخارجة عن العادة، وقناعتى بالكسرة اليابسة».. ثم يعود فيحدثنا عن بركة الإكثار من النكاح بإعتباره أعظم النوافل!.. ،عن حضوره مع الحق فى حال إجتماعه بزوجته.

«فالإكثار من النكاح تتحقق فيه العبودية التى لا يشوبها دعوة قوة، والنكاح يهيئ الزاهد لتلقى العلم اللدنى، فإن كانت الزوجة على فتنة وجمال، وجب تجاوز اللذة بالإستمتاع بها، إلى رفع الهمة إلى التمتع بجمال من هى من آثار صنعته تعالى»!.. ثم يحكى قصة غريبة عندما تزوج بفاطمة، وقد مكثت بكراً خمسة شهور، إلى أن أتاه السيد البدوى فى منامه، وقد صحبه ومكنه من إزالة بكارتها داخل ضريحه، فوق ركن القبة، التى على يسار الداخل و«تم ذلك بفضل وكرامة السيد أحمد البدوى»!

وقد تزوج الشعرانى أربع مرات على التعاقب: زينب وحليمة

وفاطمة وأم الحسن، وكان لا يجمع بين ضرتين، ويشير إلى أنه لم يعد يستحى من تعليم النساء الأجانب آداب الجماع، فضلاً عن الرجال!.. ويثنى على الله من عدم وقوعه «فى شىء من أعمال قوم لوط»!

ويطوف الإمام الشعراى حول العالم فى محفة طائرة!.. ويحكى لنا عن كراماته، وكثرة حضور الملائكة والجن لمجالسه، وهروب التماسيح عند نزوله البحر، وإن أبدى كراهة لحدوث هذه الخوارق على يديه فى الدار الدنيا ولكن «وقوع الخوارق لابد منه، ولو مرة واحدة، بشرى من الله».

وألف الشعرانى كتاباً يجيب فيه عن «نيف وسبعون سؤالا سألنى عنها علماء الجان»!.. ثم يعرض لأحوال عصره ومجتمعه، وأحوال المتصوفة فى زمانه، وصور عن فساد أخلاقهم وتهافتهم على حطام الدنيا وأن «معظمهم دجالون يحتالون على أكل أموال الناس»!

ويقدم الشعرانى لمريديه موقفاً سلبياً فى نصائحه، فيقول: «إحترام الحاكم واجب حتى لو كان جائزاً، وإذا رفض الشفاعة وجب احتمال رفضه» ويشير بتملق الحكام إتقاء شرهم «فالله هو الذى ولى على الناس الحاكم الفاسق الجائر، والخروج عليه، عصيان لله وتمرد على حكمه»!

بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين يطالبهم باحترام هؤلاء الظالمين، وأن يضمروا لهم الحب سراً وجهراً، ويحكى أنه يمرض إذا سمع بمرض أصاب الحكام!.. حتى أنه «أفطر فى رمضان عشرة أيام، ابتهاجاً بشفاء السلطان سليمان بن عثمان من ألم أصاب رجله» كما أفطر فى مرة أخرى من أجل خاطر الوزير على باشا نائب السلطنة فى مصر!!.. والشعرانى إنما يلخص فكر الصوفية مع الحاكم فى كل زمان وتقديم التبرير الكامل له!

والشعرانى عالم عصره، الفقيه الذى تحول إلى متصوف، يقول عن شيخه «على الخواص» الأمى، أنه «ينطق بجوامع الكلم ويختصر على المريد الطريق»، وقد طلب إليه أن يتخلص من كل كتبه، وينفق ثمنها إحساناً على المعوزين، وأن ينصرف عن طلب العلم، وأن يعتزل الناس ويتحاشى مجالسهم، وأن يطرد كل خاطر يهفو إلى ذهنه، فالعلوم الوهبية اللدنية تزاحم العلوم النقلية!

ويلتزم الشعرانى مجالس «الخواص» عاماً كاملاً كما أمره، حيث وجد بحر العلم عنده «مبسوط الرحاب، عميق القاع، لا يقوم سوى على الكشف الصحيح والتعريف الإلهى»..

ويغطس الشعرانى -على حد تعبيره - فى المعرفة اللدنية

«خمس مرات، فالشريعة هى السفينة، والطريق هو البحر، والحقيقة هى الدار، ووجدت فى كل مرة أغوص فيها صيداً من خزائن العلم اللدنى..»

ولابد من شيخ مرشد للمريد، كما يقول الشعرانى: «فلو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم من غير شيخ، لما احتاج مثل حجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى، ولا الشيخ عز الدين بن عبد السلام، أخذ أدبهما عن شيخ»!

وكانت «زاوية» القطب الصوفى الكبير الإمام الشعرانى، والتى بها ضريحه ومسجده الآن، مركز إستقطاب للمتصوفة والزاهدين.. والمدّعين.. حيث كان يتوافر بها عسل النحل والفاكهة والجوز واللوز.. إلى جانب خلو البال وإطمئنان النفس!

الفهرس

نصوص غربية فى الموالد

مكتبة الدراسات الشعبية

١ - قصصنا الشعبى	د. فؤاد حسنين على
٢ - يا ليل يا عين	يحيى حقى
٣ - سيد درويش	محمد دواره
٤ - المجذوب	فاروق خورشيد
٥ - فن الحزن	كرم الأبنودى
٦ - المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى	د. نبيلة ابراهيم
٧ - ابداعية الأداء جـ ١	د. محمد حافظ دياب
٨ - ابداعية الأداء جـ ٢	د. محمد حافظ دياب
٩ - أدبيات الفولكلور فى مولد السيد البدوى	ابراهيم حلمى
١٠ - موال ادهم الشرقاوى	د. يسرى العزب
١١ - الرقص الشعبى فى مصر	سعد الخادم
١٢ - المغازى	د. صلاح فضل
١٣ - بين التاريخ والفولكلور	د. قاسم عبده قاسم
١٤ - مملكة الأقطاب والدراويش	عرفه عبده على

الأعداد القادمة

فلسفة المثل الشعبى

خيال الضل

موسوعة العادات والتقاليد والتعبير الشعبية

الشعر الشعبى العربى

من ملامح المجتمع المصرى المعاصر

"قراءة فى رسائل مواطنين للإمام الشافعى"